سورة القصص

مكية، [إلا من آية ٥٢ إلى غاية آية ٥٥ فمدنية، وآية ٨٥ فبالجحفة أثناء الهجرة] وآياتها ٨٨ [نزلت بعد النمل]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣﴾

﴿مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ﴾ مفعول نتلو، أي: نتلو عليك بعض خبرهما ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ محقين، كقوله، تنبت بالدهن ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لمن سبق في علمنا أنه يؤمن، لأنّ التلاوة إنما تنفع هؤلاء دون غيرهم.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤﴾

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ﴾ جملة مستأنفة كالتفسير للمجمل، كأن قائلاً قال: وكيف كان نبؤهما فقال: إنّ فرعون ﴿عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني أرض مملكته قد طغى فيها وجاوز الحدّ في الظلم والعسف ﴿شِيَعًا﴾ فرقاً يشيعونه على ما يريد ويطيعونه، لا يملك أحد منهم أن يلوي عنقه؛ قال الأعشى [من البسيط]:

وَبَلْدَةٍ يَرْهَبُ الْجَوَّابُ دُلْجَتَهَا ... حَتَّىٰ تَرَاهُ عَلَيْهَا يَبْتَغِي الشِّيَعَا[1]

---

(١) وبلدة يرهب الجواب دلجتها ... حتى تراه عليها يبتغي الشيعا
كلفت مجهولها نفسي وشايعني ... همي عليها إذا ما آلها لمعا
بذات لوث عفرناة إذا عثرت ... فالتعس أولى لها من أن يقال: لعا

للأعشى، أي: ورب مفازة يخاف الجواب: أي كثير السير، من جبت الأرض: قطعتها بالسير. والدلجة، من دلج وأدلج بوزن افتعل، وأدلج بوزن أكرم: إذا سار ليلاً. والدلجة: ساعة من الليل، =

أو يشيع بعضهم بعضاً في طاعته. أو أصنافاً في استخدامه يتسخر صنفاً في بناء وصنفاً حرث ٢/ ٧٣ب وصنفاً في حفر، ومن لم يستعمله ضرب عليه الجزية. أو فرقا مختلفة قد أغرى بينهم العداوة، وهم بنو إسرائيل والقبط. والطائفة المستضعفة: بنو إسرائيل. وسبب ذبح الأبناء: أنّ كاهناً قال له: يولد مولود في بني إسرائيل يذهب ملكك على يده. وفيه دليل بين على ثخانة حمق فرعون، فإنه إن صدق الكاهن لم يدفع القتل الكائن، وإن كذب فما وجه القتل؟ و﴿يَسْتَضْعِفُ﴾ حال من الضمير في (وجعل) أو صفة لشيعا. أو كلام مستأنف. و﴿يُذَبِّحُ﴾ بدل من يستضعف. وقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ بيان أنّ القتل ما كان إلا فعل المفسدين فحسب، لأنه فعل لا طائل تحته، صدق الكاهن أو كذب.

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾

فإن قلت: علام عطف قوله: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ﴾ وعطفه على (نتلو) و(يستضعف) غير سديد؟ قلت: هي جملة معطوفة على قوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لأنها نظيرة «تلك» في وقوعها تفسيراً لنبأ موسى وفرعون، واقتصاصاً له. (ونريد): حكاية حال ماضية. ويجوز أن يكون حالاً من يستضعف، أي يستضعفهم فرعون، ونحن نريد أن نمنّ عليهم. فإن قلت: كيف يجتمع استضعافهم وإرادة الله المنة عليهم؟ وإذا أراد الله شيئاً كان ولم يتوقف إلى وقت آخر، قلت: لما كانت منة الله بخلاصهم من فرعون قريبة الوقوع، جعلت إرادة وقوعها كأنها مقارنة لاستضعافهم ﴿أَئِمَّةً﴾ مقدّمين في الدين والدنيا، يطأ الناس أعقابهم. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: قادة يقتدى بهم في الخير. وعن مجاهد ـ رضي الله عنه ـ: دعاة إلى الخير، وعن قتادة ـ رضي الله عنه ـ: ولاة، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾. ﴿ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ يرثون فرعون وقومه ملكهم وكل ما كان لهم. مكن له: إذا جعل له مكاناً يقعد عليه أو يرقد، فوطأه ومهده ونظيره: أرّض له. ومعنى التمكين لهم

= أي: يخاف المعتاد على السير من سيرها ليلاً حتى يطلب الجماعات المساعدين له على سيرها، كلفت نفسي سير المجهول منها، وعاونني عزمي على سيرها وقت لمعان آلها، وهو السراب الذي يرى عند شدة الحر كأنه ماء، مع أن سير الهاجرة أشد من سير الليل، ثم قال مع ناقة صاحبة قوة، ويطلق اللوث على الضعف أيضاً، فهو من الأضداد، عفرناة: غليظة، ويقال للعاثر: لعالك، دعاء له بالانتعاش. وتعساً له: دعاء عليه بالسقوط، يريد أنها لا تعثر، ولو عثرت فالدعاء عليها أحق بها من الدعاء لها.

في الأرض وهي أرض مصر والشام: أن يجعلها بحيث لا تنبو بهم ولا تغث[1] عليهم؛ كماكانت في أيام الجبابرة، وينفذ أمرهم، ويطلق أيديهم ويسلطهم. وقرئ: ويرى فرعون وهامان وجنودهما، أي: يرون ﴿مِنْهُم مَّا﴾حذروه: من ذهاب ملكهم وهلاكهم على يد مولود منهم.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾

اليم: البحر. قيل: هو نيل مصر. فإن قلت: ما المراد بالخوفين حتى أوجب أحدهما ونهى عن الآخر؟ قلت: أما الأوّل فالخوف عليه من القتل؛ لأنه كان إذا صاح خافت أن يسمع الجيران صوته فينموا عليه. وأما الثاني، فالخوف عليه من الغرق ومن الضياع ومن الوقوع في يد بعض العيون المبثوثة من قبل فرعون في تطلب الولدان، وغير ذلك من المخاوف. فإن قلت: ما الفرق بين الخوف والحزن؟ قلت: الخوف غم يلحق الإنسان لمتوقع. والحزن: غم يلحقه لواقع وهو فراقه والإخطار به، فنهيت عنهما جميعاً، وأومنت بالوحي إليها، ووعدت ما يسليها ويطامن قلبها ويملؤها غبطة وسروراً: وهو ردّه إليها وجعله من المرسلين. وروي: أنه ذبح في طلب موسى عليه السلام تسعون ألف وليد. وروي: أنها حين أقربت وضربها الطلق وكانت بعض القوابل الموكلات بحبالى بني إسرائيل مصافية لها، فقالت لها: لينفعني حبك اليوم، فعالجتها، فلما وقع إلى الأرض هالها نور بين عينيه، وارتعش كل مفصل منها، ودخل حبه قلبها، ثم قالت: ما جئتك إلا لأقبل مولودك وأخبر فرعون، ولكني وجدت لابنك حباً ما وجدت مثله فاحفظيه، فلما خرجت جاء عيون فرعون، فلفته في خرقة ووضعته في تنور مسجور[2] لم تعلم ما تصنع لما طاش من عقلها، فطلبوا فلم يلقوا شيئاً، فخرجوا وهي لا تدري مكانه، فسمعت بكاءه من التنور، فانطلقت إليه وقد جعل الله النار عليه برداً وسلاماً، فلما ألح فرعون في طلب الولدان أوحى الله إليها فألقته في اليم. وقد روي أنها أرضعته ثلاثة أشهر في تابوت من بردي[3] مطلي بالقار من داخله.

﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا

---

(١) قوله «ولا تغث عليهم» أي: ولا تفسد وتردؤ. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) قوله «ووضعته في تنور مسجور» في الصحاح «التنور»: الذي يخبز فيه. وفيه أيضاً. سجرت التنور سجرا، إذا حميته. (ع)

(٣) قوله «تابوت من بردي مطلي بالقار» في الصحاح «البردي» بالفتح: نبات معروف، فلينظر. (ع)

اللام في ﴿لِيَكُونَ﴾ هي لام كي التي معناها التعليل: كقولك: جئتك لتكرمني سواء بسواء ولكن معنى التعليل فيها وارد على طريق المجاز دون الحقيقة، لأنه لم يكن داعيهم إلى الالتقاط أن يكون لهم عدوّاً وحزناً، ولكن: المحبة والتبني، غير أن ذلك لما كانت نتيجة التقاطهم له وثمرته، شبه بالداعي الذي يفعل الفاعل الفعل لأجله، وهو الإكرام الذي هو نتيجة المجيء، والتأدب الذي هو ثمرة الضرب في قولك: ضربته ليتأدّب. وتحريره: أن هذه اللام حكمها حكم الأسد، حيث استعيرت لما يشبه التعليل، كما يستعار الأسد لمن يشبه الأسد/ ٢/ ١٧٤أ. وقرئ: وحزناً وهما لغتان: كالعُدم والعَدم ﴿كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ في كل شيء، فليس خطؤهم في تربية عدوّهم ببدع منهم. أو كانوا مذنبين مجرمين، فعاقبهم الله بأن ربي عدوّهم ـ ومن هو سبب هلاكهم ـ على أيديهم. وقرئ: خاطين، تخفيف خاطئين، أو خاطين الصواب إلى الخطأ.

﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾

روي أنهم حين التقطوا التابوت عالجوا فتحه، فلم يقدروا عليه، فعالجوا كسره فأعياهم، فدنت آسية فرأت في جوف التابوت نوراً، فعالجته ففتحته، فإذا بصبيّ نوره بين عينيه وهو يمصّ إبهامه لبنا فأحبوه، وكانت لفرعون بنت برصاء، وقالت له الأطباء: لا تبرأ إلا من، قبل البحر، يوجد فيه شبه إنسان دواؤها ريقه، فلطخت البرصاء برصها بريقه فبرأت[1] وقيل: لما نظرت إلى وجهه برأت، فقالت: إن هذه لنسمة مباركة، فهذا أحد ما عطفهم عليه، فقال الغواة من قومه: هو الصبي الذي نحذر منه، فأذن لنا في قتله، فهمّ بذلك فقالت آسية: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ﴾ فقال فرعون: لك لا لي. وروي في حديث: «لو قال هو قرّة عين لي كما هو لك لهداه الله كما هداها» (١١٠٣)، وهذا على سبيل الفرض

١١٠٣ ـ تقدم في سورة طه.

قال الحافظ: هذا طرف من حديث الفتون الطويل. وقد ذكرنا في طه أن النسائي أخرجه من حديث ابن عباس، وفيه: فأتت فرعون فقالت: قرة عين لي ولك، فقال فرعون: يكون لك فأما أنا فلا حاجة لي فيه. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «والذي يحلف به، لو أقر فرعون أن يكون له قرة عين كما أقرت امرأته ـ لهداه الله كما هداها، ولكن الله حرمه ذلك». انتهى.

---

(١) قوله «فبرأت» في الصحاح: برئت من المرض برءاً بالضم. وأهل الحجاز يقولون: برأت من المرض برءاً بالفتح، وأصبح فلان بارئاً من مرضه. (ع)

والتقدير، أي: لو كان غير مطبوع على قلبه كآسية لقال مثل قولها، ولأسلم كما أسلمت: هذا ـ إن صح الحديث ـ تأويله، والله أعلم بصحته. وروي أنها قالت له: لعله من قوم آخرين ليس من بني إسرائيل. قرّة عين: خبر مبتدأ محذوف ولا يقوى أن تجعله مبتدأ و(لا تقتلوه) خبراً، ولو نصب لكان أقوى. وقراءة ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ دليل على أنه خبر، قرأ: لا تقتلوه قرّة عين لي ولك، بتقديم (لا تقتلوه). ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ فإنّ فيه مخايل اليمن ودلائل النفع لأهله، وذلك لما عاينت من النور وارتضاع الإبهام وبرء البرصاء، ولعلها توسمت في سيماه النجابة المؤذنة بكونه نفاعاً. أو نتبناه، فإنه أهل للتبني، ولأن يكون ولداً لبعض الملوك. فإن قلت: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ حال، فما ذو حالها؟ قلت: ذو حالها آل فرعون. وتقدير الكلام: فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً، وقالت امرأة فرعون كذا وهم لا يشعرون أنهم على خطأ عظيم في التقاطه ورجاء النفع منه وتبنيه. وقوله: إن فرعون... الآية: جملة اعتراضية واقعة بين المعطوف والمعطوف عليه، مؤكدة لمعنى خطئهم. وما أحسن نظم هذا الكلام عند المرتاض بعلم محاسن النظم.

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾﴾

﴿فَٰرِغًا﴾ صفراً من العقل. والمعنى: أنها حين سمعت بوقوعه في يد فرعون طار عقلها لما دهمها من فرط الجزع والدهش. ونحوه قوله تعالى: ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ [ابراهيم: ٤٣] أي جوّف لا عقول فيها؛ ومنه بيت حسان [من الوافر]:

أَلاَ أَبْلِغْ أَبَا سُفْيَانَ عَنِّي ... فَأَنْتَ مُجَوَّفٌ نَخِبٌ هَوَاءُ[1]

وذلك أنّ القلوب مراكز العقول. ألا ترى إلى قوله: ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحج: ٤٦] ويدل عليه قراءة من قرأ: فرغاً. وقرئ: قرعاً، أي خالياً من قولهم: أعوذ بالله من صفر الإناء وقرع الفناء[2]. وفرغاً، من قولهم: دماؤهم بينهم فرغ، أي هدر، يعني: بطل قلبها وذهب، وبقيت لا قلب لها من شدّة ما ورد عليها ﴿لَتُبْدِى بِهِۦ﴾

---

(١) تقدم شرح هذا الشاهد ضمن أبيات في الجزء الثاني صفحة ٥٦٣ فراجعه إن شئت اهـ. مصححه.

(٢) قوله «من صفر الإناء وقرع الفناء» صفر الإناء: خلوه مصدر: صفر الشيء بالكسر، أي: خلا وقرع الفناء: خلوه من الغاشية، مصدر قرع بالكسر، أي: خلا. (ع)

لتصحر[1] به. والضمير لموسى والمراد بأمره وقصته، وأنه ولدها ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ بإلهام الصبر، كما يربط على الشيء المنفلت ليقرّ ويطمئن ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من المصدقين بوعد الله، وهو قوله: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ ويجوز: وأصبح فؤادها فارغاً من الهم، حين سمعت أن فرعون عطف عليه وتبناه إن كادت لتبدي بأنه ولدها؛ لأنها لم تملك نفسها فرحاً وسروراً بما سمعت، لولا أنا طامنا قلبها وسكنّا قلقه الذي حدث به من شدّة الفرح والابتهاج، لتكون من المؤمنين الواثقين بوعد الله لا بتبني فرعون وتعطفه. وقرئ: مؤسى، بالهمزة: جعلت الضمة في جارة الواو ـ وهي الميم ـ كأنها فيها، فهمزت كما تهمز واو وجوه ﴿قُصِّيهِ﴾ اتبعي أثره وتتبعي خبره. وقرئ فبصرت بالكسر ـ يقال بصرت به عن جنب وعن جنابة، بمعنى: عن بعد. وقرئ: عن جانب، وعن جنب. والجنب: الجانب. يقال: قعد إلى جنبه وإلى جانبه، أي: نظرت إليه مزورة متجانفة مخاتلة[2]. وهم لا يحسون بأنها أخته، وكان اسمها مريم.

﴿۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَـٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَـٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾

التحريم: استعارة للمنع؛ لأنّ من حرم عليه الشيء فقد منعه. ألا ترى إلى قولهم: محظور. وحجر، وذلك لأن الله منعه أن يرضع ثدياً، فكان لا يقبل ثدي مرضع قط، حتى أهمهم ذلك، والمراضع: جمع مرضع، وهي المرأة التي ترضع. أو جمع مرضع، وهو موضع الرضاع يعني الثدي أو الرضاع ﴿مِن قَبْلُ﴾ من قبل قصصها أثره/ ٢/ ٧٤ب. روي أنها لما قالت: ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَـٰصِحُونَ﴾ قال هامان: إنها لتعرفه وتعرف أهله، فقالت: إنما أردت وهم للملك ناصحون[3] والنصح: إخلاص العمل من شائب الفساد، فانطلقت إلى أمها بأمرهم، فجاءت بها والصبيّ على يد فرعون يعلله شفقة عليه وهو يبكي يطلب الرضاع، فحين وجد ريحها استأنس والتقم ثديها، فقال لها فرعون: ومن أنت منه فقد أبى كل ثدي إلا ثديك؟ قالت: إني امرأة طيبة الريح طيبة اللبن، لا أوتى بصبي إلا قبلني،

---

(١) قوله «لتصحر به» في الصحاح: أصحر الرجل، أي: خرج إلى الصحراء والمراد هنا تجهر به ولا تكتم أمره. (ع)

(٢) قوله «متجانفة مخاتلة» متجانفة: أي مائلة. ومخاتلة: أي مخادعة. أفاده الصحاح. (ع)

(٣) قال محمود: «إنهم اتهموها لما قالت ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَـٰصِحُونَ﴾ بمعرفة موسى عليه السلام، فقالت إنما أردت وهم للملك فرعون ناصحون، فخلصت من التهمة» قال أحمد: أوردت هذه التورية استحساناً لفطنتها، ولكونها من بيت النبوّة، وأخت النبي، فحقيق لها ذلك.

فدفعه إليها وأجرى عليها، وذهبت به إلى بيتها، وأنجز الله وعده في الردّ، فعندها ثبت واستقرّ في علمها أن سيكون نبياً. وذلك قوله: ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ يريد: وليثبت علمها ويتمكّن. فإن قلت: كيف حل لها أن تأخذ الأجر على إرضاع ولدها؟ قلت: ما كانت تأخذه على أنه أجر على الرضاع، ولكنه مال حربيّ كانت تأخذه على وجه الاستباحة. وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ داخل تحت علمها. المعنى: لتعلم أن وعد الله حق، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أنه حق فيرتابون. ويشبه التعريض بما فرط منها حين سمعت بخبر موسى، فجزعت وأصبح فؤادها فارغاً يروى أنها حين ألقت التابوت في اليم جاءها الشيطان فقال لها: يا أم موسى، كرهت أن يقتل فرعون موسى فتؤجري، ثم ذهبت فتوليت قتله، فلما أتاها الخبر بأن فرعون أصابه قالت: وقع في يد العدوّ، فنسيت وعد الله. ويجوز أن يتعلق (ولكنّ) بقوله: (ولتعلم) ومعناه: أن الردّ إنما كان لهذا الغرض الديني، وهو علمها بصدق وعد الله. ولكنّ الأكثر لا يعلمون بأن هذا هو الغرض الأصلي الذي ما سواه تبع له: من قرّة العين وذهاب الحزن.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾

﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ واعتدل وتمّ استحكامه، وبلغ المبلغ الذي لا يزاد عليه، كما قال لَقِيطٌ [من البسيط]:

وَٱسْتَحْمِلُوا أَمْرَكُمْ لِلَّهِ دَرُّكُمُ ... شَزْرَ المَرِيرَةِ لاَ قَحْماً وَلاَ ضَرَعَا[1]

---

(١) للقيط. وروي: واستحكموا. والشزر: القتل الشديد، والشيء الشديد، فهو مصدر أو وصف، والمريرة من المرة وهي القوة. والمرير: الحبل المحكم الفتل. والقحم: الشيخ الهرم يعتريه خرق وخرف. والضرع: اللين الذليل، من الضراعة وهي الذلة والخضوع، يقول: قلدوا أمر خلافتكم رجلاً محكم العزيمة قوي الهمة، لا هرماً مختل الرأي ولا ضعيفاً، ولله دركم: جملة اعتراضية، أي: لله خيركم وصالح عملكم. وقيل: هذا البيت ملفق مما رواه أبو العباس المبرد في كامله، ومنه:

فقلدوا أمركم لله دركم ... رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا
ما زال يحلب هذا الدهر أشطره ... يكون متبعا طوراً ومتبعا
حتى استمرت على شزر مريرته ... مستحكم الرأي لا قحمًا ولا ضرعا

ورحب الذراع: طويل الباع واسع الصدر، أي: شجاع جواد، واضطلع بكذا: قوي عليه واشتد، من الضلاعة وهي القوة واحتمال الثقيل، وشطرت الناقة شطراً: حلبت شطر لبنها وتركت شطره، أي: نصفه وما هنا مستعار منه، أي: جربت الدهر ومرت بي ضروبه من خير وشر، فاكتسبت منه ما يصح به رائي. والأشطر: جمع شطر بدل من الدهر. ويجوزأن حلب يتعدى إلى مفعولين ولو بالتضمين. ومتبع الأول: اسم مفعول، والثاني: اسم فاعل، أي: تارة تابع، وتارة متبوع، واستمرت مريرته: قوي عزمه واستحكم أمره على شزر، أي قوة وصدق همة.
ينظر: الكامل (١/ ٣٣٠)، البحر (٨/ ١٧٤)، الدر المصون (٦/ ٢٢١).

وذلك أربعون سنة: ويروى: أنه لم يبعث نبيّ إلا على رأس أربعين سنة (١١٠٤). العلم. التوراة. والحكم: السنة. وحكمة الأنبياء: سنتهم. قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: ٣٤] وقيل: معناه أتيناه سيرة الحكماء العلماء، وسمتهم قبل البعث، فكان لا يفعل فعلاً يستجهل فيه.

﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾

المدينة: مصر. وقيل: مدينة منف من أرض مصر. وحين غفلتهم: ما بين العشاءين. وقيل: وقت القائلة. وقيل: يوم عيد لهم هم مشتغلون فيه بلهوهم. وقيل: لما شبّ وعقل أخذ يتكلم بالحق وينكر عليهم، فأخافوه، فلا يدخل قرية إلا على تغفل. وقرأ سيبويه: فاستعانه ﴿مِن شِيعَتِهِۦ﴾ ممن شايعه على دينه من بني إسرائيل. وقيل: هو السامريّ ﴿مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ من مخالفيه من القبط، وهو فاتون، وكان يتسخر الإسرائيلي لحمل الحطب إلى مطبخ فرعون. والوكز: الدفع بأطراف الأصابع. وقيل: بجمع الكف. وقرأ ابن مسعود: فلكزه. باللام ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ فقتله. إن قلت: لم جعل قتل الكافر من عمل الشيطان وسماه ظلماً لنفسه واستغفر منه؟ قلت: لأنه قتله قبل أن يؤذن له في القتل، فكان ذنباً يستغفر منه. عن ابن جريج: ليس لنبي أن يقتل ما لم يؤمر ﴿بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ يجوز أن يكون قسماً جوابه محذوف، تقديره: أقسم بإنعامك عليّ بالمغفرة لأتوبنّ ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾[1] وأن يكون استعطافاً، كأنه قال: رب اعصمني بحق ما أنعمت عليّ من المغفرة، فلن أكون ـ إن عصمتني ـ ظهيراً للمجرمين. وأراد بمظاهرة المجرمين: إما صحبة فرعون وانتظامه في جملته وتكثيره سواده حيث كان يركب بركوبه كالولد مع الوالد، وكان يسمى ابن فرعون. وإما مظاهرة من أدت مظاهرته إلى الجرم والإثم، كمظاهرة

١١٠٤ ـ قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»: لم أجده. انتهى.

---

(١) قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ قال أحمد: لقد تبرأ من عظيم؛ لأن ظهير المجرمين شريكهم فيما هم بصدده. ويروى: أنه يقال يوم القيامة: أين الظلمة وأعوان الظلمة، فيؤتى بهم حتى بمن لاق لهم لبقة أو برى لهم قلماً فيجعلون في تابوت من حديد ويلقى بهم في النار.

الإسرائيلي المؤدية إلى القتل الذي لم يحل له. وعن ابن عباس: لم يستثن فابتلى به مرّة أخرى. يعني: لم يقل: (فلن أكون) إن شاء الله. وهذا نحو قوله: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ [هود:١١٣] وعن عطاء: أنّ رجلاً قال له: إنّ أخي يضرب بقلمه ولا يعدو رزقه. قال: فمن الرأس، يعني من يكتب له؟ قال: خالد بن عبد الله القسري: قال: فأين قول موسى؟ وتلا هذه الآية. وفي الحديث: «ينادي مناد يوم القيامة: أين الظلمة وأشباه الظلمة وأعوان الظلمة، حتى من لاق لهم دواة أو برى لهم قلماً، فيجمعون في تابوت من حديد فيرمى به في جهنم» (١١٠٥) وقيل معناه. بما أنعمت/ ٢/ ٧٥أ عليّ من القوّة، فلن أستعملها إلا في مظاهرة أوليائك وأهل طاعتك والإيمان بك. ولا أدع قبطياً يغلب أحداً من بني إسرائيل.

﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾

﴿يَتَرَقَّبُ﴾ المكروه هو الاستقادة منه، أو الإخبار وما يقال فيه، ووصف الإسرائيلي بالغيّ؛ لأنه كان سبب قتل رجل، وهو يقاتل آخر. وقرئ: يبطش، بالضم. والذي هو عدوّ لهما: القبطي؛ لأنه ليس على دينهما. ولأن القبط كانوا أعداء بني إسرائيل. والجبار: الذي يفعل ما يريد من الضرب والقتل بظلم، لا ينظر في العواقب ولا يدفع بالتي هي أحسن: وقيل: المتعظم الذي لا يتواضع لأمر الله، ولما قال هذا: أفشى على موسى فانتشر الحديث في المدينة ورقى إلى فرعون، وهموا بقتله.

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾

قيل: الرجل: مؤمن آل فرعون، وكان ابن عم فرعون، و﴿يَسْعَىٰ﴾ يجوز ارتفاعه وصفاً لرجل، وانتصابه حالاً عنه؛ لأنه قد تخصص بأن وصف بقوله: ﴿مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ وإذا جعل صلة لجاء، لم يجز في (يسعى) إلا الوصف. والائتمار: التشاور. يقال: الرجلان يتآمران ويأتمران، لأن كل واحد منهما يأمر صاحبه بشيء أو يشير عليه بأمر. والمعنى: يتشاورون بسببك ﴿لَكَ﴾ بيان، وليس بصلة الناصحين.

١١٠٥ ـ قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»: ذكره صاحب الفردوس من حديث أبي هريرة. انتهى.

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾

﴿يَتَرَقَّبُ﴾ التعرّض له في الطريق. أو أن يلحق.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾

﴿تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ قصدها ونحوها. ومدين: قرية شعيب عليه السلام، سميت بمدين بن إبراهيم، ولم تكن في سلطان فرعون، وبينها وبين مصر مسيرة ثمان، وكان موسى لا يعرف إليها الطريق قال ابن عباس: خرج وليس له علم بالطريق إلا حسن ظنه بربه. و﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ وسطه ومعظم نهجه. وقيل: خرج حافياً لا يعيش إلا بورق الشجر، فما وصل حتى سقط خف قدمه. وقيل: جاءه ملك على فرس بيده عنزة، فانطلق به إلى مدين.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾

﴿مَآءَ مَدْيَنَ﴾ ماءهم الذين يستقون منه، وكان بئراً فيما روي. وورروده: مجيئه والوصول إليه ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ﴾ وجد فوق شفيره ومستقاه ﴿أُمَّةً﴾ جماعة كثيفة العدد ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ من أناس مختلفين ﴿مِن دُونِهِمُ﴾ في مكان أسفل من مكانهم. والذود: الطرد والدفع وإنما كانتا تذودان؛ لأنّ على الماء من هو أقوى منهما فلا يتمكنان من السقي. وقيل: كانتا تكرهان المزاحمة على الماء. وقيل: لئلا تختلط أغنامهما بأغنامهم، وقيل: تذودان عن وجوههما نظر الناظر لتسترهما ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ ما شأنكما. وحقيقته: ما مخطوبكما، أي: مطلوبكما من الذياد، فسمى المخطوب خطبا، كما سمى المشئون شأناً في قولك: ما شأنك؟ يقال: شأنت شأنه، أي: قصدت قصده. وقرئ لا نسقي. ويصدر.

والرعاء، بضم النون والياء والراء. والرعاء: اسم جمع كالرخال والثناء[1]. وأما الرعاء بالكسر فقياس، كصيام وقيام ﴿شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ كبير السن ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ فسقى غنمهما لأجلهما. وروي أن الرعاة كانوا يضعون على رأس البئر حجراً لا يقله إلا سبعة رجال. وقيل: عشرة. وقيل: أربعون. وقيل: مائة، فأقله وحده. وروي أنه سألهم دلواً من ماء فأعطوه دلوهم وقالوا: استق بها، وكانت لا ينزعها إلا أربعون، فاستقى بها وصبها في الحوض ودعا بالبركة، وروى غنمهما وأصدرهما، وروي أنه دفعهم عن الماء حتى سقى لهما. وقيل: كانت بئراً أخرى عليها الصخرة. وإنما فعل هذا رغبة في المعروف وإغاثة للملهوف. والمعنى: أنه وصل إلى ذلك الماء وقد ازدحمت عليه أمّة من أناس مختلفة متكاثفة العدد، ورأى الضعيفتين من ورائهم مع غنيمتهما مترقبتين لفراغهم، فما أخطأت همته في دين الله تلك الفرصة، مع ما كان به من النصب وسقوط خف القدم والجوع، ولكنه رحمهما فأغاثهما، وكفاهما أمر السقي في مثل تلك الزحمة بقوّة قلبه وقوّة ساعده، وما آتاه الله من الفضل في متانة الفطرة ورصانة الجبلة وفيه مع إرادة اقتصاص أمره وما أوتي من البطش والقوّة وما لم يغفل عنه، على ما كان به من انتهاز فرصة الاحتساب، ترغيب في الخير، وانتهاز فرصة، وبعث على الاقتداء في ذلك بالصالحين والأخذ بسيرهم ومذاهبهم. فإن قلت: لم ترك المفعول غير مذكور في قوله: (يسقون) و(تذودان) و(لا نسقي)[2]؟ قلت: لأن الغرض هو الفعل لا المفعول، ألا ترى أنه إنما رحمهما لأنهما كانتا على الذياد/ ٢/ ٧٥ب وهم على السقي، ولم يرحمهما لأن مذودهما غنم ومسقيهم إبل مثلاً، وكذلك قولهما (لا نسقي حتى يصدر الرعاء) المقصود فيه السقي لا المسقي. فإن قلت: كيف طابق جوابهما سؤاله قلت: سألهما عن سبب الذود فقالتا: السبب في ذلك أنا امرأتان ضعيفتان مستورتان لا نقدر على مساجلة الرجال[3] ومزاحمتهم، فلا بد لنا من تأخير السقي إلى أن يفرغوا، وما لنا رجل يقوم بذلك، وأبونا شيخ قد أضعفه الكبر فلا يصلح للقيام به: أبلتا إليه عذرهما[4] في توليهما السقي بأنفسهما. فإن قلت: كيف ساغ

---

(١) قوله: «لا نسقي ويصدر والرعاء بضم النون والياء والراء... إلخ» يفيد أن القراءة المشهورة بفتح النون والياء وكسر الراء. والرخال: واحده رخل، وهي الأنثى من ولد الضأن والثناء: عقال البعير ونحوه من حبل مثنى، كذا في الصحاح. (ع)

(٢) قوله «وتذودان ولا نسقي» لعل بعده سقطًا تقديره: فسقى لهما، وعبارة النسفي: لا نسقي، و: فسقي. (ع)

(٣) قوله «لا نقدر على مساجلة الرجال» في الصحاح: «السجل» الدلو إذا كان فيه ماء. والمساجلة: المفاخرة بأن نصنع مثل صنعه في جري أو سقي، وأصله من الدلو اهـ. (ع)

(٤) قوله «أبلتا إليه عذرهما» لعله تحريف، وأصله: أبدتا، كعبارة النسفي. (ع)

لنبيّ الله الذي هو شعيب عليه السلام أن يرضى لابنتيه بسقي الماشية؟ قلت: الأمر في نفسه ليس بمحظور، فالدين لا يأباه. وأما المروءة. فالناس مختلفون في ذلك، والعادات متباينة فيه، وأحوال العرب فيه خلاف أحوال العجم، ومذهب أهل البدو فيه غير مذهب أهل الحضر، خصوصاً إذا كانت الحالة حالة ضرورة ﴿إِنِّي﴾ لأي شيىء ﴿أَنزَلْتَ إِلَيَّ﴾ قليل أو كثير، غث أو سمين لـ﴿فَقِيرٌ﴾[1] وإنما عدى فقير باللام؛ لأنه ضمن معنى سائل وطالب. قيل: ذكر ذلك وإن خضرة البقل يتراءى في بطنه من الهزال، ما سأل الله إلا أكلة. ويحتمل أن يريد: إني فقير من الدنيا لأجل ما أنزلت إليّ من خير الدين وهو النجاة من الظالمين: لأنه كان عند فرعون في ملك وثروة: قال ذلك رضاً بالبدل السني، وفرحاً به، وشكراً له، وكان الظل ظل سمرة ﴿عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ في موضع الحال، أي: مستحيية متخفرة[2]. وقيل: قد استترت بكم درعها. روي أنهما لما رجعتا إلى أبيهما قبل الناس وأغنامهما حفل بطان[3] قال هما: ما أعجلكما؟ قالتا: وجدنا رجلاً صالحاً رحمنا فسقى لنا، فقال لإحداهما: اذهبي فادعيه لي، فتبعها موسى فألزقت الريح ثوبها بجسدها فوصفته، فقال لها: امشي خلفي وانعتي لي الطريق، فلما قص عليه قصته قال له: لا تخف فلا سلطان لفرعون بأرضنا. فإن قلت: كيف ساغ لموسى أن يعمل بقول امرأة، وأن يمشي معها وهي أجنبية؟ قلت: أما العمل بقول امرأة فكما يعمل بقول الواحد حرّاً كان أو عبداً ذكراً كان أو أنثى في الأخبار، وما كانت إلا مخبرة عن أبيها بأنه يدعوه ليجزيه. وأما مماشاته امرأة أجنبية فلا بأس بها في نظائر تلك الحال، مع ذلك الاحتياط والتورّع. فإن قلت: كيف صح له أخذ الأجر على البرّ والمعروف؟ قلت: يجوز أن يكون قد فعل ذلك لوجه الله وعلى سبيل البر والمعروف. وقيل إطعام شعيب وإحسانه لا على سبيل أخذ الأجر، ولكن على سبيل التقبل لمعروف مبتدأ. كيف وقد قص عليه قصصه وعرفه أنه من بيت النبوّة من أولاد يعقوب؟ ومثله حقيق بأن يضيّف ويكرم خصوصاً في دار نبيّ من أنبياء الله، وليس بمنكر أن يفعل ذلك لاضطرار الفقر والفاقة طلباً للأجر. وقد روي ما يعضد كلا القولين: روي أنها لما قالت: ليجزيك، كره ذلك، ولما قدّم إليه الطعام امتنع وقال: إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بطلاع الأرض[4] ذهباً، ولا نأخذ على المعروف ثمناً. حتى قال شعيب: هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا. وعن عطاء بن السائب: رفع صوته

---

(١) قوله «غث أو سمين لفقير» أي مهزول كما في الصحاح. والمراد: رديء أو جيد. (ع)

(٢) قوله «أي مستحيية متخفرة» الخفر: شدة الحياء. ومنه جارية خفرة ومتخفرة، كذا في الصحاح. (ع)

(٣) قوله «وأغنامها حفل بطان» في الصحاح: ضرع حافل، أي ممتلىء لبناً. وفيه: بطن بالكسر يبطن بطنا: عظم بطنه من الشبع. (ع)

(٤) قوله «لا نبيع ديننا بطلاع الأرض ذهباً» في الصحاح «طلاع الشيء»: ملؤه. (ع)

بدعائه ليسمعهما، فلذلك قيل له: ليجزيك أجر ما سقيت، أي: جزاء سقيك. والقصص: مصدر كالعلل، سمي به المقصوص. كبراهما: كانت تسمى صفراء، والصغرى: صفيراء. وصفراء: هي التي ذهبت به وطلبت إلى أبيها أن يستأجره، وهي التي تزوجها. وعن ابن عباس: أن شعيباً أحفظته الغيرة(١) فقال: وما علمك بقوّته وأمانته؟ فذكرت إقلال الحجر ونزع الدلو، وأنه صوّب رأسه حين بلغته رسالته وأمرها بالمشي خلفه. وقولها: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ كلام حكيم جامع لا يزاد عليه، لأنه إذا اجتمعت هاتان الخصلتان؛ أعني الكفاية والأمانة في القائم بأمرك فقد فرغ بالك وتم مرادك؛ وقد استغنت بإرسال هذا الكلام الذي سياقه سياق المثل، والحكمة أن تقول استأجره لقوّته وأمانته(٢). فإن قلت: كيف جعل خير من استأجرت اسماً لإنّ، والقوي الأمين خبراً؟ قلت: هو مثل قوله [من الطويل]:

أَلاَ إِنَّ خَيْرَ النَّاسِ حَيّاً وَهَالِكاً ... أَسِيرُ ثَقِيفٍ عِنْدَهُمْ فِي السَّلاَسِلِ؟(٣)

---

(١) قوله «أن شعيباً أحفظته الغيرة» أي أغضبته، كما في الصحاح. (ع)

(٢) قال محمود: «هذا كلام حكيم جامع لا يزاد عليه؛ لأنه إذا اجتمعت القوة والأمانة في القائم بأمرك فقد فرغ بالك، وقد استغنت بإرسال هذا الكلام الذي ساقته سياق المثل والحكم عن أن تقول: فإنه قوي أمين» قال أحمد: وهو أيضاً أجمل في مدح النساء للرجال من المدح الخاص وأبقى للحشمة، وخصوصاً إن كانت فهمت أن غرض أبيها عليه السلام أن يزوجها منه، وما أحسن ما أخذ الفاروق رضي الله تعالى عنه هذا المعنى فقال: أشكو إلى الله ضعف الأمين وخيانة القوي، ففي مضمون هذه الشكاية سؤال الله تعالى أن يتحفه بمن جمع الوصفين، فكان قوياً أميناً يستعين به على ما كان بصدده رضي الله عنه. وهذا الإبهام ـ من ابنة شعيب صلوات الله عليه وسلامه ـ قد سلكته زليخا مع يوسف عليه السلام، ولكن شتان ما بين الحياء المجبول والمستعمل، ليس التكحل في العين كالكحل، حيث قالت لسيدها: ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم، وهي تعني ما جزاء يوسف بما أرادني من السوء إلا أن تسجنه أو تعذبه عذاباً أليماً، ولكنها أوهمت زوجها الحياء والخفر أن تنطق بالعصمة منسوباً إليها الخنا، إيذاناً بأن هذا الحياء منها الذي يمنعها أن تنطق بهذا الأمر، يمنعها من مراودة يوسف بطريق الأحرى والأولى، والله أعلم.

(٣) إلا إن خير الناس حيّا وميتّا ... أسير ثقيف عندهم في السلاسل؟
لعمري إن عمرتم السجن خالداً ... وأوطأتموه وطأة المتثاقل
لقد كان نهاضّا بكل ملمة ... ومعطي اللهى خمراً كثير النوافل

لأبي الشغب العبسي، يتحزن على خالد بن عبد الله القسري حين أسره يوسف بن عمرو. وخير الناس: أفعل تفضيل، مضاف إلى المعرف بأل، وهو اسم إن. وحيا وميتا، وروي هالكاً: حالان منه. وأسير: خبر إن مضاف إلى ثقيف علم القبيلة. والعلم أعرف من المحلى بأل، فخبر إن المضاف إليه أعرف من اسمها المضاف للمحلى، ولا مانع منه مع اتحاد الماصدق الذي هو مراد المخبر، وعندهم في السلاسل: حال أو خبر بعد خبر. ولعمري: قسم، إن عمرتم: أي أدخلتم وأسكنتم خالداً السجن. وأوطأتموه، أي: صيرتموه يطأ برجله الأرض كوطأة المتثاقل: الحامل لشيء ثقيل، لجعل القيد في رجليه. فهو كناية عن ذلك لقد كان نهاضاً جواب القسم، وجواب =

في أن العناية هي سبب التقدم، وقد صدقت حتى جعل لها ما هو أحق بأن يكون خبراً اسماً، وورود الفعل بلفظ الماضي للدلالة على أنه أمر قد جرب وعرف. ومنه قولهم: أهون ما أعملت لسان ممخ[1]. وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: أفرس الناس ثلاثة: بنت شعيب، وصاحب يوسف، في قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ وأبو بكر/ ٢/ ١٧٦أ في عمر. روي أنه أنكحه صفراء. وقوله: ﴿هَٰتَيْنِ﴾ فيه دليل على أنه كانت له غيرهما ﴿تَأْجُرَنِى﴾ من أجرته إذا كنت له أجيراً، كقولك: أبوته إذا كنت له أباً، و﴿ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ﴾ ظرفه. أو من أجرته كذا، إذا أثبته إياه، ومنه: تعزية رسول الله ـ ﷺ ـ: أجركم الله ورحمكم (١١٠٦). وثماني حجج: مفعول به، ومعناه: رعية ثماني حجج فإن قلت: كيف صح أن ينكحه إحدى ابنتيه من غير تمييز؟ قلت: لم يكن ذلك عقداً للنكاح، ولكن مواعدة ومواصفة أمر قد عزم[2] عليه، ولو كان عقداً لقال: قد أنكحتك ولم يقل: إني أريد أن أنكحك. فإن قلت: فكيف صح أن يمهرها إجارة نفسه في رعية الغنم، ولا بد من تسليم ما هو مال؟ ألا ترى إلى أبي حنيفة كيف منع أن يتزوج امرأة بأن يخدمها سنة[3] وجوّز أن يتزوجها بأن يخدمها عبده سنة، أو يسكنها داره سنة، لأنه في الأول: مسلم

١١٠٦ ـ أخرجه الحافظ أبو نعيم في تاريخ أصبهان (١/ ١١٨) وله شواهد عند أبي بكر بن أبي شيبة في مصنفه (٣/ ٥٧) كتاب الجنائز باب في الرجل يعزى ما يقال له (١٢٠٧١) عن أبي خالد الوالبي بلفظ: «يرحمه الله ويأكركم».
وابن حبان في المجروين والضعفاء (١/ ١٢٧) من حديث إسماعيل بن يحيى بن عبد التيمي: أنا ابن أبي ذئب عن ابن عمر: «أن رسول الله ـ ﷺ ـ عزى رجلاً مسلماً برجل ذمي، فقال: آجرك الله =

الشرط محذوف، أي: كان سريع القيام بكل نازلة ثقيلة، وكان معطي اللهى ـ بالفتح ـ: جمع لهاة، كحصى وحصاة، بمعنى اللحمة التي في أقصى الفم، لكنها هنا بمعنى الفم نفسه. والأوجه أنه بالضم جمع لهوة، كغرف: جمع غرفة بمعنى العطية من أي نوع كانت، غمراً: أي عطاء كثيراً غامرا، وكان كثير الزيادات في العطاء، وأجرى «معطي» مجرى المرفوع للوزن.

(١) قوله «أهون ما أعملت لسان ممخ» في الصحاح: تمخيت من الشيء وأمخيت منه: إذا تبرأت منه اهـ. فلعل ممخ: اسم فاعل من أمخيت. (ع)

(٢) قوله «ولكن مواعدة ومواصفة أمر قد عزم عليه» لعله: ومواضعة. (ع)

(٣) قال محمود: «نقل من مذهب أبي حنيفة منع النكاح على مثل خدمته بعينه، وجوازه على مثل خدمة عبده سنة، وفرق بأنه في الأولى سلم نفسه وليس بمال، وفي الثانية سلم عبده وهو مال. ونقل عن الشافعي جواز النكاح على المنافع المعلومة مطلقاً» قال أحمد: ومذهب مالك على ثلاثة أقوال: المنع، والكراهة، والجواز. والعجب من إجازة أبي حنيفة النكاح على منافع العبد، بخلاف منافع الزوج، مع أن الآية أجازت النكاح على منافع الزوج ولم تتعرض لغيره، وما ذاك إلا لترجيح المعنى الذي أشار إليه الزمخشري. أو تفريعاً على أن لا دليل في شرع من قبلنا، أو غير ذلك، والله أعلم.

نفسه وليس بمال، وفي الثاني: هو مسلم مالاً وهو العبد أو الدار، قلت: الأمر على مذهب أبي حنيفة على ما ذكرت. وأما الشافعي: فقد جوّز التزوّج على الإجارة لبعض الأعمال والخدمة، إذا كان المستأجر له أو المخدوم فيه أمراً معلوماً، ولعلّ ذلك كان جائزاً في تلك الشريعة. ويجوز أن يكون المهر شيئاً آخر، وإنما أراد أن يكون راعي غنمه هذه المدّة، وأراد أن ينكحه ابنته، فذكر له المرادين، وعلق الإنكاح بالرعية على معنى: إني أفعل هذا إذا فعلت ذاك على وجه المعاهدة لا على وجه المعاقدة. ويجوز أن يستأجره لرعية ثمانية سنين بمبلغ معلوم ويوفيه إياه، ثم ينكحه ابنته به، ويجعل قوله: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖ﴾ عبارة عما جرى بينهما ﴿فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ﴾ عمل عشر حجج ﴿فَمِنۡ عِندِكَ﴾ فإتمامه من عندك، ومعناه: فهو من عندك لا من عندي، يعني: لا ألزمكه ولا أحتمه عليك، ولكنك إن فعلته فهو منك تفضل وتبرع، وإلا فلا عليك ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَ﴾ بإلزام أتمّ الأجلين وإيجابه. فإن قلت: ما حقيقة قولهم: شققت عليه، وشق عليه الأمر؟ قلت: حقيقته أن الأمر إذا تعاظمك فكأنه شق عليك ظنك باثنين، تقول تارة: أطيقه، وتارة: لا أطيقه. أو وعده المساهلة والمسامحة من نفسه، وأنه لا يشق عليه فيما استأجره له من رعي غنمه، ولا يفعل نحو ما يفعل المعاسرون من المسترعين، من المناقشة في مراعاة الأوقات، والمداقة في استيفاء الأعمال، وتكليف الرعاة أشغالاً خارجة عن حدّ الشرط، وهكذا كان الأنبياء عليهم السلام آخذين بالأسمح في معاملات الناس. ومنه الحديث «كان رسول الله ـ ﷺ ـ شريكي، فكان خير شريك لا يداري ولا يشاري ولا يماري» (١١٠٧)،

= وأعظم أجرك» وأعله بإسماعيل بن يحيى وقال: كان ممن يروي الموضوعات عن الثقات، لا يحل الرواية عنه ولا الاحتجاج به بحال.

وأخرج أبو داود في سننه (٢/ ١٠٤): كتاب الزكاة باب زكاة السائمة (٢/ ٩٦) حديث (١٥٨٣)، في حديث طويل جاء فيه: «هذا الذي عليك فإن تطوعت بخير أجرك الله فيه وقبلناه منك ومثله عند أحمد في مسنده (٥/ ١٤٢).

قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه أبو نعيم في تاريخ أصبهان من طريق أحمد بن الحسن بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي عن آبائه إبراهيم بن الحسن عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها. قال: كان رسول الله ـ ﷺ ـ إذا عزى قال: «آجركم الله ورحمكم»، وإذا هنأ قال: «بارك الله لكم وبارك عليكم»، وله شاهد مرسل أخرجه ابن أبي شيبة من رواية ابن خالد الوالبي: أن النبي ـ ﷺ ـ عزى رجلاً فقال له: «يرحمه الله ويأجركم، وفي الضعفاء لابن حبان عن ابن عمر: أن النبي ـ ﷺ ـ عزى مسلماً بذمي مات له، فقال: «آجرك الله وأعظم أجرك» وفي إسناده إسماعيل بن يحيى التيمي. وهو ساقط. انتهى.

١١٠٧ ـ أخرجه أبو داود (٤/ ٢٦٠) كتاب الأدب: باب كراهية المراء، حديث (٤٨٣٦)، أخرجه ابن ماجه (٢/ ٧٦٨): كتاب التجارات: باب الشركة والمضاربة، حديث (٢٢٨٧). وأحمد في المسند =

وقوله: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ يدل على ذلك، يريد بالصلاح: حسن المعاملة ووطأة الخلق ولين الجانب[1]. ويجوز أن يريد الصلاح على العموم. ويدخل تحته حسن المعاملة، والمراد باشتراط مشيئة الله فيما وعد من الصلاح: الاتكال على توفيقه فيه ومعونته، لا أنه يستعمل الصلاح إن شاء الله، وإن شاء استعمل خلافه ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ، و﴿بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ خبره، وهو إشارة إلى ما عاهده عليه شعيب، يريد. ذلك الذي قلته وعاهدتني فيه وشارطتني عليه قائم بيننا جميعاً، لا نخرج كلانا عنه، لا أنا عما شرطت عليّ ولا أنت عما شرطت على نفسك. ثم قال: أي أجل من الأجلين قضيت: أطولهما الذي هو العشر، أو أقصرهما الذي هو الثمان ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ﴾ أي لا يعتدى عليّ في طلب الزيادة عليه. فإن قلت: تصوّر العدوان إنما هو أحد الأجلين الذي هو الأقصر وهو المطالبة بتتمة العشر، فما معنى تعليق العدوان بهما جميعاً؟ قلت: معناه كما أني إن طولبت بالزيادة على العشر كان عدواناً لا شك فيه، فكذلك إن طولبت بالزيادة على الثمان، أراد بذلك تقرير أمر الخيار، وأنه ثابت مستقرّ، وأن الأجلين على السواء: إما هذا وإما هذا من غير تفاوت بينهما في القضاء، وأما التتمة فموكولة إلى رأيي: إن شئت أتيت بها، وإلا لم أجبر عليها. وقيل: معناه فلا أكون متعدّياً، وهو في نفي العدوان عن نفسه، كقولك: لا إثم عليّ، ولا تبعة عليّ، وفي قراءة ابن مسعود: أي الأجلين ما قضيت، وقرئ: أيَمَا، بسكون الياء، كقوله [من الطويل]:

تَنَظَّرْتُ نَصْراً وَالسِّمَاكَيْنِ أَيْهُمَا ... عَلَيَّ مِنَ الْغَيْثِ اسْتَهَلَّتْ مَوَاطِرُهْ[2]

= (٣/ ٤٢٥). والطبراني في معجمه الكبير (٧/ ١٦٥)، حديث برقم (٦٦١٩).
وذكره الهيثمي في المجمع (٩/ ٤١٢). وذكره الزيلعي في تخريج الكشاف من حديث السائب بن يزيد (قلت): بل هو السائب بن أبي السائب المخزومي.
وقال الهيثمي: رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح غير منصور بن أبي الأسود وهو ثقة.
قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه أبو داود، وابن ماجه من حديث السائب، أنه قال: قال النبي - ﷺ -: كنت شريك، فكنت خير شريك، لا تداري ولا تماري. انتهى.

---

(١) قوله «ووطأة الخلق ولين الجانب» في الصحاح: «شيء وطيء»: بين الوطاءة. (ع)

(٢) للفرزدق. ونصر: هو ابن سيار ملك العراقين، والسماكان: كوكبان: السماك الأعزل لا نجم أمامه، والسماك الرامح أمامه نجوم، وأيهما أصله مشدد فسكن للضرورة، ثم يحتمل أنه نصب بدل مما قبله، وأنه معمول لمحذوف: أي لا أعلم أيهما وهو موصول. ويجوز أنه استفهام، وعليه فهو رفع على الابتداء، والضمير فيه راجع لنصر والسماكين، أي: ترقبت نصراً والسماكين أيهما استهلت مواطره على من الغيث، وأهل السحاب واستهل: اشتد انصبابه. والمواطر: السحائب. والغيث: المطر. وفي قرن نصر بالسماكين: دلالة على تشبيهه بهما في الخير وعلى الاستفهام، فهو من باب تجاهل العارف، وكذلك على نفي العلم. =

وعن ابن قطيب: عدوان، بالكسر. فإن قلت: ما الفرق بين موقعي (ما) المزيدة في القراءتين؟ قلت: وقعت في المستفيضة مؤكدة لإبهام، أيّ: زائدة في شياعها. وفي الشاذة تأكيداً للقضاء، كأنه قال: أي الأجلين صممت على قضائه وجدت عزيمتي له. الوكيل: الذي وكل إليه/ ٢/ ٧٦ب الأمر، ولما استعمل في موضع الشاهد والمهيمن والمقيت[١]، عدى بعلى لذلك. روي أنّ شعيباً كانت عنده عصى الأنبياء فقال لموسى بالليل: ادخل ذلك البيت فخذ عصا من تلك العصي. فأخذ عصا هبط بها آدم من الجنة، ولم يزل الأنبياء يتوارثونها حتى وقعت إلى شعيب، فمسها ـ وكان مكفوفاً، فضنّ بها فقال: غيرها، فما وقع في يده إلا هي سبع مرات، فعلم أنّ له شأناً. وقيل: أخذها جبريل بعد موت آدم فكانت معه حتى لقي بها موسى ليلاً. وقيل: أودعها شعيباً ملك في صورة رجل، فأمر بنته أن تأتيه بعصا، فأتته بها فردها سبع مرّات فلم يقع في يدها غيرها، فدفعها إليه ثم ندم لأنها وديعة، فتبعه فاختصما فيها، ورضيا أن يحكم بينهما أوّل طالع، فأتاهما الملك فقال: ألقياها فمن رفعها فهي له، فعالجها الشيخ فلم يطقها؛ ورفعها موسى، وعن الحسن: ما كانت إلا عصا من الشجر اعترضها اعتراضاً. وعن الكلبي: الشجرة التي منها نودي شجرة العوسج، ومنها كانت عصاه. ولما أصبح قال له شعيب: إذا بلغت مفرق الطريق فلا تأخذ على يمينك، فإنّ للكلأ وإن كان بها أكثر، إلا أنّ فيها تنيناً[٢] أخشاه عليك وعلى الغنم، فأخذت الغنم ذات اليمن ولم يقدر على كفها، فمشى على أثرها فإذا عشب وريف لم ير مثله، فنام فإذا بالتنين قد أقبل، فحاربته العصا حتى قتلته وعادت إلى جنب موسى دامية، فلما أبصرها دامية والتنين مقتولاً ارتاح لذلك، ولما رجع إلى شعيب مسّ الغنم، فوجدها ملأى البطون غزيرة اللبن، فأخبره موسى ففرح وعلم أنّ لموسى والعصا شأناً، وقال له: إني وهبت لك من نتاج غنمي هذا العام كلّ أدرع ودرعاء[٣]، فأوحى إليه في المنام: أن اضرب بعصاك مستقى الغنم، ففعل؛ ثم سقى فما أخطأت واحدة إلا وضعت أدرع ودرعاء، فوفى له بشرطه.

= ينظر: ديوانه ١/ ٢٨١، وشرح عمدة الحافظ ص ٣٩٣، ولسان العرب (حير)، (أيا)، والمحتسب ١/ ٤١، ١٠٨، وبلا نسبة في الأشباه والنظائر ١/ ٩٣، ٥/ ٦٥، والجنى الداني ص ٢٣٤، وشرح شواهد المغني ١/ ٢٣٦، ومغني اللبيب ١/ ٧٧.

(١) قوله «والمهيمن والمقيت» أي: المقتدر، أو الحافظ. (ع)

(٢) قوله «إلا أن فيها تنينا» أي: ثعبانا. (ع)

(٣) قوله «كل أدرع ودرعاء» لعله «كل أردع وردعاء» وفي الصحاح: به ردع من زعفران أو دم، أي: لطخ وأثر. وردعته بالشيء فارتدع، أي: لطخته به فتلطخ اهـ. فالأردع: شبيه المتلطخ بلون آخر. ولفظ الخازن: أبلق وبلقاء. (ع)

﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَانِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾

سئل رسول الله ﷺ: أي الأجلين قضى موسى؟ فقال: أبعدهما وأبطأهما (١١٠٨)، وروي أنه قال: قضى أوفاهما، وتزوّج صغراهما. وهذا خلاف الرواية التي سبقت. الجذوة ـ باللغات الثلاث. وقرئ بهنّ جميعاً ـ: العود الغليظ، كانت في رأسه نار أو لم تكن؛ قال كثير [من البسيط]:

بَاتَتْ حَوَاطِبُ لَيْلَىٰ يَلْتَمِسْنَ لَهَا ... جَزْلَ الْجُذَىٰ غَيْرَ خَوَّارٍ وَلا دَعِرِ[1]

١١٠٨ ـ أخرجه الحاكم (٢/ ٤٠٧ ـ ٤٠٨) من طريق سفيان بن عيينة ثنى إبراهيم بن يحيى ثنا الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس به مرفوعاً وصححه الحاكم، وقال الذهبي: إبراهيم لا يعرف وقال في «الميزان» (١/ ٧٣ ـ ٧٤): أتى بخبر منكر ـ وهو هذا الحديث ـ وهو رجل نكرة.
قال الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٣/ ٢٩ ـ ٣٠): قال ابن القطان في كتابه الوهم والإيهام: هذا حديث يرويه سفيان بن عيينة ثنا إبراهيم بن يحيى بن أبي يعقوب ـ وكان رجلاً صالحاً ـ عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس قال: سئل... الحديث قال: وإبراهيم بن يحيى لا يعرف بغير هذا ولا يعرف أحد روى عنه إلا ابن عيينة وليس كل صالح ثقة في الحديث بل قيل: لا نرى الكذب من الصالحين في الحديث وذلك لسلامة صدورهم وتحسينهم الظن بمن يحدثهم وتشاغلهم بما هم فيه عن ضبط الحديث وحفظه ومن لم تثبت عدالته لا يصح حديثه .اهـ. =

---

(١) لابن مقبل. والحواطب: الجواري يطلبن الحطب، والالتماس ـ بحسب الأصل ـ: من اللمس، ثم اتسع فيه. والجذل: الحطب الغليظ اليابس: والجذي: جمع جذوة بتثليث الجيم فيهما وهي العود الغليظ في رأسه نار أو لا. والخوار: الضعيف. والخور معيب. إلا في قولهم: ناقة خوارة، أي كثيرة اللبن، ونخلة خوارة: كثيرة الحمل. ودعر العود دعرا كتعب كثر دخانه، فهو دعر كحذر. والدعر أيضاً: السوس والفساد. والدعار: الفسق والخبث، وغير خوار: حال من جزل الجذي. (ع)
ينظر: ديوانه (ص ٩١)، لسان العرب (دعر)، (حذا)، مقاييس اللغة (٢/ ٢٨٣)، المخصص (١١/ ٢٣، ١٥/ ١٥٦)، تاج العروس (دعر) (جزل)، (جذو)، أساس البلاغة (حذو) الكامل (ص ٦٨٣)، شرح ديوان الحماسة للتبريزي (١/ ١٠٠).

وقال [من الطويل]:

وَأَلْقَىٰ عَلَىٰ قَبْسٍ مِنَ النَّارِ جَذْوَةً شَدِيداً عَلَيْهِ حَرُّهَا وَٱلْتِهَابُهَا[1]

﴿مِن﴾ الأولى والثانية لابتداء الغاية، أي: أتاه النداء من شاطىء الوادي من قبل الشجرة. و﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ بدل من قوله: من شاطىء الوادي، بدل الاشتمال؛ لأنّ الشجرة كانت نابتة على الشاطىء، كقوله تعالى: ﴿لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ﴾ [الزخرف: ٣٣] وقرئ: ﴿ٱلْبُقْعَةِ﴾ بالضم والفتح. و(الرهب) بفتحتين، وضمتين، وفتح وسكون، وضم وسكون: وهو الخوف. فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾؟ قلت: فيه معنيان، أحدهما: أنّ موسى عليه السلام لما قلب الله العصا حية: فزع واضطرب، فاتقاها بيده كما يفعل الخائف من الشيء، فقيل له: إنّ اتقاءك بيدك فيه غضاضة[2] عند الأعداء.

= قلت: قد توبع إبراهيم بن يحيى على هذا الحديث تابعه حفص بن عمر العدني.
أخرجه الحاكم (٢/ ٤٠٧) والبيهقي في «السنن الكبرى» (٦/ ١١٧) كلاهما من طريق حفص بن عمر العدني ثنا الحكم بن أبان به.
وقال الذهبي حفص بن عمر واه. وللحديث شاهد من حديث أبي ذر.
أخرجه البزار (٢٢٤٤ ـ كشف) والطبراني كما في «تخريج الكشاف» (٣/ ٣٠) من طريق عويد بن عمران الجوني عن أبيه عن عبد الله بن الصامت عن أبي ذر مرفوعاً.
قال الحافظ ابن حجر وعويد ضعيف. وله شاهد آخر من حديث عتبة بن الندر السلمي أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ١٥) وقال أبو نعيم: وعتبة بن الندر السلمي ذكره أبو سعيد بن الأعرابي في أهل الصفة.
وللحديث شاهد آخر من حديث أبي هريرة أخرجه ابن مردويه كما في «تخريج الكشاف» (٣/ ٣٠) من طريق سليمان بن داود الشاذكوني ثنا عبد العزيز بن محمد الدراوردي عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة.
قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه الحاكم من طريق ابن عيينة عن إبراهيم بن يحيى عن عكرمة عن ابن عباس بهذا قلت: وإبراهيم مجهول. وقوله: وروي أنه قال قضى أوفاهما وتزوج من صغراهما: أخرجه الطبراني والبزار من طريق عويد بن أبي عمران الجوني عنه عن أبيه عن عبد الله بن الصامت عن أبي: «أن النبي ـ ﷺ ـ سئل: أي الأجلين قضى موسى؟ قال: أوفاهما وأبرهما. قال وسئل أي المرأتين تزوج؟ قال الصغرى منهما»، وعويد ضعيف، وفي ابن مردويه من حديث أبي هريرة رفعه، قال لي جبريل: إن سألك اليهودي: أي الأجلين قضى موسى؟ فقل: أوفاهما، وإن سألك أيهما تزوج؟ فقل: الصغرى منهما»، وفي إسناده سليمان الشاذكوني وهو ضعيف.

---

(١) الجذوة في الأصل: العود الغليظ في رأسه نار أو لا، ولكن خصها الوصف بما في رأسه نار، ثم إنها استعارة تصريحية للرمح أو للسيف، والحر والالتهاب: ترشيح لها. وشديد: خبر المبتدأ الذي بعده. ينظر: البحر المحيط / ٧/ ١٠٣، الدر المصون / ٥/ ٣٤٠.

(٢) قوله «فيه غضاضة» أي: ذلة ومنقصة، كما في الصحاح. (ع)

فإذا ألقيتها فكما تنقلب[1] حية، فأدخل يدك تحت عضدك مكان اتقائك بها، ثم أخرجها بيضاء ليحصل الأمران: اجتناب ما هو غضاضة عليك، وإظهار معجزة أخرى. والمراد بالجناح: اليد؛ لأنّ يدي الإنسان بمنزلة جناحي الطائر. وإذا أدخل يده اليمنى تحت عضد يده اليسرى، فقد ضمّ جناحه إليه. والثاني: أن يراد بضم جناحه إليه: تجلده وضبطه نفسه. وتشدّده عند انقلاب العصا حية حتى لا يضطرب/ ٢/ ٧٧أ ولا يرهب، استعارة من فعل الطائر؛ لأنه إذا خاف نشر جناحيه وأرخاهما. وإلا فجناحاه مضمومان إليه مشمران. ومنه ما يحكى عن عمر بن عبد العزيز أنّ كاتباً له كان يكتب بين يديه، فانفلتت منه فلتة ريح، فخجل وانكسر، فقام وضرب بقلمه الأرض، فقال له عمر: خذ قلمك، واضمم إليك جناحك، وليفرخ روعك[2]، فإني ما سمعتها من أحد أكثر مما سمعتها من نفسي. ومعنى قوله: (من الرهب) من أجل الرهب، أي: إذا أصابك الرهب عند رؤية الحية فاضمم إليك جناحك: جعل الرهب الذي كان يصيبه سبباً وعلة فيما أمر به من ضم جناحه إليه. ومعنى: (واضمم إليك جناحك). وقوله: (اسلك يدك في جيبك) على أحد التفسيرين: واحد. ولكن خولف بين العبارتين، وإنما كرّر المعنى الواحد لاختلاف الغرضين، وذلك أن الغرض في أحدهما خروج اليد بيضاء وفي الثاني: إخفاء الرهب. فإن قلت: قد جعل الجناح وهو اليد في أحد الموضعين مضموماً وفي الآخر مضموماً إليه، وذلك قوله: (واضمم إليك جناحك) وقوله: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ [طه: ٢٢] فما التوفيق بينهما؟ قلت: المراد بالجناح المضموم. هو اليد اليمنى، وبالمضموم إليه: اليد اليسرى وكلّ واحدة من يمنى اليد ويسراهما: جناح. ومن بدع التفاسير: أنّ الرهب: الكم، بلغة حمير وأنهم يقولون: أعطني مما في رهبك، وليت شعري كيف صحته في اللغة؟ وهل سمع من الإثبات الثقات الذين ترتضى عربيتهم؟ ثم ليت شعري كيف موقعه في الآية؟ وكيف تطبيقه المفصل[3] كسائر كلمات التنزيل؟ على أن موسى عليه السلام ما كان عليه ليلة المناجاة إلا زرمانقة[4] من صوف لا كمى لها ﴿فَذَٰنِكَ﴾ قرئ مخففاً ومشدّداً، فالمخفف مثنى ذلك. والمشدّد مثنى ذلك، ﴿بُرْهَـٰنَانِ﴾ حجتان بينتان نيرتان. فإن قلت: لم سميت الحجة برهاناً؟ قلت: لبياضها وإنارتها من قولهم للمرأة البيضاء. برهرهة، بتكرير العين واللام معاً. والدليل على زيادة النون قولهم: أبره الرجل، إذا جاء

---

(١) قوله «فكما تنقلب حية» أي: فعندما تنقلب. (ع)

(٢) قوله «وليفرخ روعك» أي ليذهب فزعك. أفاده الصحاح. (ع)

(٣) قوله «وكيف تطبيقه المفصل» لعله تطبيقه على المفصل. (ع)

(٤) قوله «زرمانقة من صوف» في الحديث: أن موسى عليه السلام لما أتى فرعون أتاه وعليه زرمانقة، يعني: جبة صوف. قال أبو عبيد: أراها عبرانية، كذا في الصحاح. (ع)

بالبرهان. ونظيره تسميتهم إياها سلطاناً من السليط وهو الزيت، لإنارتها.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾

يقال: ردأته: أعنته. والردء: اسم ما يعان به، فعل بمعنى مفعول؛ كما أن الدفء اسم لما يدفأ به؛ قال سلامة بن جندل [من الوافر]:

وَرِدْنِي كُلُّ أَبْيَضَ مَشْرَفِيٍّ ... شَحِيذِ الْحَدِّ عَضْبٍ ذِي فُلُولِ[1]

وقرئ: رداً على التخفيف، كما قرئ: الخب ﴿رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ﴾ بالرفع والجزم صفة وجواب، نحو ﴿وَلِيًّا يَرِثُنِي﴾ [مريم: ٥ ـ ٦] سواء. فإن قلت: تصديق أخيه ما الفائدة فيه؟ قلت: ليس الغرض بتصديقه أن يقول له: صدقت، أو يقول للناس: صدق موسى، وإنما هو أن يلخص بلسانه الحق، ويبسط القول فيه، ويجادل به الكفار، كما يفعل الرجل المنطيق ذو العارضة، فذلك جار مجرى التصديق المفيد، كما يصدّق القول بالبرهان. ألا ترى إلى قوله: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ﴾، وفضل الفصاحة إنما يحتاج إليه لذلك، لا لقوله: صدقت، فإنّ سحبان وباقلا[2] يستويان فيه، أو يصل جناح كلامه بالبيان، حتى يصدّقه الذي يخاف تكذيبه، فأسند التصديق إلى هارون، لأنه السبب فيه إسناداً مجازياً. ومعنى الإسناد المجازي: أن التصديق حقيقة في المصدّق، فإسناده إليه حقيقة وليس في السبب تصديق، ولكن استعير له الإسناد لأنه لابس التصديق بالتسبب كما لابسه الفاعل بالمباشرة. والدليل على هذا الوجه قوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ وقراءة من قرأ: ردءاً يصدقوني. وفيها تقوية للقراءة بجزم يصدقني.

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِآيَاتِنَا ۚ أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾

العضد: قوام اليد، وبشدّتها تشتد؛ قال طرفة [من الكامل]:

---

(١) لسلامة بن جندل. يقول: وردني الذي أتوقى به المكاره كل سيف أبيض، وعبر بكل، لأن المراد بيان الجنس لا الشخص، مشرفي: نسبة إلى مشارف اليمن قرى منها. وقيل: من الشام، شحيذ الحد: مرهفه، من شحذ المدية: حددها. عضب: قاطع، والفلول: جمع فل ـ بالفتح: وهو كسر في حد السيف وانثلام، أي به فلول من قراع الكتائب.
ينظر: الدر المصون (٥/ ٣٤٣).

(٢) قوله «فإن سحبان وباقلا يستويان فيه» مثل في الفصاحة. وباقل: مثل في الفهاهة والعي. (ع)

أَبَنِي لُبَيْنَى لَسْتُمُ بِيَدٍ إِلاَّ يَداً لَيْسَتْ لَهَا عَضُدُ[1]

ويقال في دعاء الخير: شدّ الله عضدك. وفي ضده؛ فت الله في عضدك. ومعنى ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ سنقويك به ونعينك، فإمّا أن يكون ذلك لأن اليد تشتد بشدة العضد. والجملة تقوى بشدة اليد على مزاولة الأمور. وإمّا لأنّ الرجل شبه باليد في اشتدادها باشتداد العضد، فجعل كأنه يد مشتدة بعضد شديدة ﴿سُلْطَٰنًا﴾ غلبة وتسلطا. أو حجة واضحة ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ متعلق بنحو ما تعلق به في تسع آيات، أي اذهبا بآياتنا. أو بنجعل لكما سلطاناً، أي: نسلطكما بآياتنا. أو بلا يصلون، أي: تمتنعون منهم بآياتنا. أو هو بيان لـ «غالبون» لا صلة، لامتناع تقدم الصلة على الموصول. ولو تأخر: لم يكن إلا صلة له. ويجوز أن يكون قسماً جوابه: لا يصلون، مقدماً عليه. أو من لغو القسم.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾﴾

﴿سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ سحر تعمله أنت ثم تفتريه على الله، أو سحر ظاهر افتراؤه/ ٢/ ٧٧ب. أو موصوف بالافتراء كسائر أنواع السحر وليس بمعجزة من عند الله ﴿فِىٓ ءَابَآئِنَا﴾ حال منصوبة عن هذا، أي: كائناً في زمانهم وأيامهم، يريد: ما حدثنا بكونه فيهم، ولا يخلو من أن يكونوا كاذبين في ذلك، وقد سمعوا وعلموا بنحوه. أو يريدوا أنهم لم يسمعوا بمثله في فظاعته. أو ما كان الكهان يخبرون بظهور موسى ومجيئه بما جاء به. وهذا دليل على أنهم حجوا وبهتوا، وما وجدوا ما يدفعون به ما جاءهم من الآيات إلا قولهم هذا سحر وبدعة لم يسمعوا بمثلها.

---

(١) أبني لبينى لستم بيد إلا يداً ليست لها عضد
أبني لبينى لا أحقكم وجد الإله بكم كما أجد

لطرفة بن العبد. وقيل: لأوس بن حجر. والهمزة للنداء. ولبينى: اسم أمة كناية عن أنهم أرقاء. واليد استعارة تصريحية للأقوياء. أو تشبيه بليغ، أي: لستم مثل يد من الأيدي في القوة، إلا مثل يد لا عضد لها، فهي صعبة. ويروى إلا يداً مخبولة العضد، يقال: خبلت يده أشللتها، ففي القافية الإقواء، وفيه استتباع الذم بما يشبه المدح للمبالغة في الذم، وكرر النداء لزيادة التعبير، وحقه يحقه: خصمه يخصمه، وأثبته، وأوجبه أيضا: أي لا أثبتكم. أو لستم أهلاً لمخاصمتي إياكم. ووجد عليه: غضب. ووجد به: حزن، أي: غضب الله بسببكم كما أغضب أنا. أو كرهكم كما يكره الحزين ما يحزنه. وهذا دعاء عليهم بالإهلاك.
وهو لأوس بن حجر في ديوانه ص ٢١، وشرح أبيات سيبويه ٢/ ٦٨، ولطرفة بن العبد في ديوانه ص ٤٥، وشرح المفصل ٢/ ٩٠، وبلا نسبة في أمالي ابن الحاجب ص ٤٤١، والكتاب ٢/ ٣١٧، والمقتضب ٤/ ٤٢١.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٣٧﴾

يقول: ﴿رَبِّيٓ أَعۡلَمُ﴾ منكم بحال من أهله الله للفلاح الأعظم، حيث جعله نبياً وبعثه بالهدى، ووعده حسن العقبى: يعني نفسه، ولو كان كما تزعمون كاذباً ساحراً مفترياً لما أهله لذلك؛ لأنه غني حكيم لا يرسل الكاذبين، ولا ينبىء الساحرين، ولا يفلح عنده الظالمون. و﴿عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ﴾ هي العاقبة المحمودة. والدليل عليه قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾ [الرعد: ٢٢ ـ ٢٣]، وقوله: ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلۡكُفَّٰرُ لِمَنۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد ٤٢]، والمراد بالدار: الدنيا، وعاقبتها وعقباها: أن يختم للعبد بالرحمة والرضوان وتلقى الملائكة بالبشرى عند الموت. فإن قلت: العاقبة المحمودة والمذمومة كلتاهما يصح أن تسمى عاقبة الدار؛ لأن الدنيا إمّا أن تكون خاتمتها بخير أو بشر، فلم اختصت خاتمتها بالخير بهذه التسمية دون خاتمتها بالشر؟ قلت: قد وضع الله سبحانه الدنيا مجازاً إلى الآخرة، وأراد بعباده أن لا يعملوا فيها إلا الخير، وما خلقهم إلا لأجله ليتلقوا خاتمة الخير وعاقبة الصدق، ومن عمل فيها خلاف ما وضعها الله فقد حرف؛ فإذا عاقبتها الأصلية هي عاقبة الخير. وأما عاقبة السوء فلا اعتداد بها؛ لأنها من نتائج تحريف الفجار[1]. وقرأ ابن كثير: (قال موسى) بغير واو، على ما في مصاحف أهل مكة، وهي

---

(١) قال محمود: «العاقبة هي العاقبة المحمودة، والدليل عليه قوله عز وجل: ﴿أولئك لهم عقبى الدار جنات عدن﴾ وقوله: ﴿وسيعلم الكفّار لمن عقبى الدار﴾ والمراد دار الدنيا وعاقبتها أن يختم للإنسان فيها بالرحمة والرضوان وتتلقاه الملائكة بالبشرى عند الموت. قال: فإن قلت العاقبة المحمودة والمذمومة كلاهما يصح أن يسمى عاقبة لأن الدنيا إما أن تكون خاتمتها خيراً أو شراً، فلم اختصت خاتمتها بالخير بهذه التسمية دون خاتمتها بالشر؟ قلت: لأن الله سبحانه وتعالى وضع الدنيا مجازاً للآخرة وأراد لعباده فيها أن يعبدوه ولا يعملوا إلا الخير وما خلقهم إلا لأجله، كما قال: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦﴾ فمن عمل في الدنيا على خلاف ذلك فقد حرف؛ لأن عاقبتها الأصلية هي عاقبة الخير، وأما عاقبة الشر فلا اعتداد بها لأنها من تحريف الفجار» قال أحمد: وقد تقدم من قواعد أهل الحق ما يستضاء به في هذا المقام، والقدر الذي يحتاج إلى تجديده ههنا: أن استدلاله على أن عاقبة الخير وعبادة الله تعالى هي المرادة له لا سواها بقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦﴾ معارض بأمثاله في أدلة أهل السنة على عقائدهم، مثل قوله: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ﴾ الآية. والمراد والله أعلم: ولقد جعلنا لعذاب جهنم خلقاً كثيراً من الثقلين. ومن ذلك ما يروى عن الفاروق رضي الله عنه أنه قال: وإنكم آل المغيرة ذرء النار، أي: خلقها، فلئن دلت آية الذاريات ظاهراً على أن الله تعالى إنما خلق الثقلين لتكون عاقبتهم الجنة جزاء وثواباً على عبادتهم له، فقد دلت آية الأعراف على أنه خلق كثيراً من الثقلين لتكون عاقبتهم جهنم جزاءاً على كفرهم. وحينئذٍ يتعين الجمع بين الآيتين، وحمل عموم آية =

قراءة حسنة؛ لأنّ الموضع موضع سؤال وبحث عما أجابهم به موسى عليه السلام عند تسميتهم مثل تلك الآيات الباهرة: سحراً مفترى. ووجه الأخرى: أنهم قالوا ذلك، وقال موسى عليه السلام هذا، ليوازن الناظر بين القول والمقول، ويتبصر فساد أحدهما وصحة الآخر [من الكامل]:

. . . . . وَبِضِدِّهَا تَتَمَيَّزُ الأَشْيَاءُ[1]

وقرئ تكون: بالياء والتاء.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾

روي أنه لما أمر ببناء الصرح، جمع هامان العمال حتى اجتمع خمسون ألف بناء سوى الأتباع والأجراء، وأمر بطبخ الآجر والجص ونجر الخشب وضرب المسامير، فشيدوه حتى بلغ ما لم يبلغه بنيان أحد من الخلق، فكان الباني لا يقدر أن يقف على رأسه

= الذاريات على خصوص الآية الأخرى، وإن المراد: وما خلقت السعداء من الثقلين إلا لعبادتي، جمعاً بين الأدلة، فقد ثبت أن العاقبتين كلتيهما مرادة لله تعالى: هذا بعد تظافر البراهين العقلية على ذلك، فوجه مجيء العاقبة المطلقة كثيراً وإرادة الخير بها: أن الله تعالى هدى الناس إليها ووعدهم ما ورد في سلوك طريقها من النجاة والنعيم المقيم، ونهاهم عن ضدها وتوعدهم على سلوكها بأنواع العذاب الأليم، وركب فيهم عقولاً ترشدهم إلى عاقبة الخير، ومكنهم منها، وأزاح عللهم ووفر دواعيهم، فكان من حقهم أن لا يعدلوا عن عاقبة الخير ولا يسلكوا غير طريقها، وأن يتخذوها نصب أعينهم، فأطلقت العاقبة والمراد بها الخير تفريعاً على ذلك، والله أعلم. والحاصل: أنها لما كانت هي المأمور بها والمحضوض عليها، عوملت معاملة ما هو مراد وإن لم تكن مرادة من كثير من الخلق، وقال لي بعضهم: ما يمنعك أن تقول لم يفهم كون العاقبة المطلقة هي عاقبة الخير من إطلاقها، ولكن من إضافتها إلى ذويها باللام في الآية المذكورة، كقوله: ﴿وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾، ﴿وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار﴾، ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ فافهمت اللام أنها عاقبة الخير؛ إذ هي لهم وعاقبة السوء عليهم لا لهم، كما يقولون: الدائرة لفلان، يعنون: دائرة الظفر والنصر. والدائرة على فلان. يعنون: دائرة الخذلان والسوء، فقلت: لقد كان لي في ذلك مقال لولا ورود ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ ولم يقل عليهم، فاستعمال اللام مكان «على» دليل على إيفاء الاستدلال باللام على إرادة عاقبة الخير، والله أعلم.

(١) من يظلم القرناء في تكليفهم ... أن يصبحوا وهم له أكفاء
ويذمهم وبهم عرفنا فضله ... وبضدها تتميز الأشياء

لأبي الطيب المتنبي، يمدح هارون بن عبد العزيز، أي: أنه تظلم أقرانه في تكليفهم أن يكونوا مساوين له وفي ذلك مشقة عليهم: كناية عن أنه لا يساويه أحد. وقوله: وبضدها إلى آخره: دليل على ما قبله. ويروى: تتبين الأشياء، والمعنى واحد، أي: الأشياء تعرف بمعرفة معنى أضدادها.

يبني، فبعث الله تعالى جبريل عليه السلام عند غروب الشمس، فضربه بجناحه فقطعه ثلاث قطع: وقعت قطعة على عسكر فرعون فقتلت ألف ألف رجل، ووقعت قطعة في البحر وقطعة في المغرب، ولم يبق أحد من عماله إلا قد هلك. ويروى في هذه القصة: أنّ فرعون ارتقى فوقه فرمى بنشابة نحو السماء، فأراد الله أن يفتنهم فردّت إليه وهي ملطوخة بالدم؛ فقال: قد قتلت إلٰه موسى، فعندما بعث الله جبريل عليه السلام لهدمه، والله أعلم بصحته. قصد بنفي علمه بإلٰه غيره. نفي وجوده، ومعناه ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٨]، معناه بما ليس فيهن، وذلك لأنّ العلم تابع للمعلوم لا يتعلق به إلا على ما هو عليه، فإذا كان الشيء معدوماً لم يتعلق به موجود، فمن ثمة كان انتفاء العلم بوجوده لا انتفاء وجوده. وعبر عن انتفاء وجوده بانتفاء العلم بوجوده[1]. ويجوز أن يكون على

---

(١) قال محمود: «عبر عن نفي المعلوم بنفي العلم، وإنما كان كذلك لأن العلم لا يتعلق بالمعلوم إلا على ما هو عليه إن موجوداً فموجود وإن معدوماً فمعدوم، فمن ثم عبر عن نفي كونه موجوداً بنفي كونه معلوماً» قال أحمد: لشدة ما بلغ منه الوهم، لم يتأمل كيف سقوط السهم؛ وإنما أتى من حيث أن الله تعالى عبر كثيراً عن نفي المعلوم بنفي العلم في مثل قوله: قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض، أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض، فلما اطرد ذلك عنده توهم أن هذا التعبير عن نفي المعلوم بنفي العلم يشمل كل علم، ولو لم يتعلق بالمعلوم على ما هو به، وليس هو كذلك، بل هذا التعبير لا يسوغ إلا في علم الله تعالى لأمر يخص العلم القديم وهو عموم تعلقه حتى لا يعزب عنه أمر، فمن لم يتعلق العلم بوجوده يلزم أن لا يكون موجوداً، إذ لو كان موجوداً لتعلق به بخلاف علم الخلق، فلا تلازم بين نفي الشيء ونفي العلم الحادث بوجوده، ولا كذلك العلم القديم، فإن بين نفي معلومه ونفي تعلقه بوجوده تلازماً سوغ التعبير المذكور، ولكن المعلوم أن فرعون كان يدعي الإلهية ويعامل علمه معاملة علم الله تعالى في أنه لا يعزب عنه شيء، فمن ثم طغى وتكبر. وعبر بنفي علمه عن نفي المعلوم، تدليساً على ملئه، وتلبيساً على عقولهم السخيفة ـ والله أعلم ـ ويناسب تعاظمه هذا قوله: ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ ولم يقل: فاطبخ لي آجراً، وذلك من التعاظم، كما قال تعالى: ـ وله العظمة والكبرياء، ومن ارتدى بردائهما قصمه ـ: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ﴾ فذكر هذه العبارة الجامعة لأنواع الكفر على وجه الكبرياء تهاوناً بها، وذلك من تجبر الملوك ـ جل الله وعز ـ ومن تعاظم فرعون أيضا: نداؤه لوزيره باسمه، وبحرف النداء وتوسيط ندائه خلال الأمر، وبناؤه الصرح ورجاؤه الاطلاع: دليل على أنه لم يكن مصمماً على الجحود. قال الزمخشري: وذلك مناقض لما أظهر من الجحد الجازم في قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ فإما أن يخفى هذا التناقض على قومه لغباوتهم وكآبة أذهانهم. وإما أن يتفطنوا لها ويخافوا نقمته فيصروا. قال أحمد: ولقائل ـ والله أعلم ـ: أن يحمل قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ على الشك، ونفي علمه خاصة، وإجرائه مجرى سائر علوم الخلق في أنه لا يلزم من نفي تعلقه بوجود أمر نفي ذلك الأمر، لجواز أن يكون موجوداً عازباً عن علمه. وحينئذٍ لا يكون تناقضاً، ولو لم يكن حمله هذا هو الأصل لما سوغنا أن يرفع التناقض عن كلامه، لأنه أحقر من ذلك.

ظاهره، وأنّ إلٰها غيره غير معلوم عنده، ولكنه مظنون بدليل قوله: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، وإذا ظنّ موسى عليه السلام كاذباً في إثباته إلٰها غيره ولم يعلمه كاذباً، فقد ظنّ أن في الوجود إلٰها غيره، ولو لم يكن المخذول ظاناً ظناً كاليقين، بل عالماً بصحة قول موسى عليه السلام لقول موسى له: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢] لما تكلف ذلك البنيان العظيم، ولما تعب في بنائه ما تعب، لعله يطلع بزعمه إلى إلٰه موسى عليه السلام، وإن كان جاهلاً مفرط الجهل به وبصفاته، حيث حسب أنه في مكان كما كان هو في مكان، وأنه يطلع إليه كما كان يطلع إليه إذا قعد في عليته، وأنه ملك السماء كما أنه ملك الأرض. ولا ترى بينة أثبت شهادة على إفراط جهله وغباوته وجهل ملئه وغباوتهم: من أنهم راموا نيل أسباب السموات بصرح يبنونه، وليت شعري؛ أكان يلبس على أهل بلاده ويضحك من عقولهم، حيث صادفهم أغبى الناس وأخلاهم من الفطن وأشبههم بالبهائم بذلك؟ أم كان في نفسه بتلك الصفة؟ وإن صحّ ما حكي/ ٢/ ٧٨أ من رجوع النشابة إليه ملطوخة بالدم، فتهكم به بالفعل، كما جاء التهكم بالقول في غير موضع من كتاب الله بنظرائه من الكفرة. ويجوز أن يفسر الظن على القول الأوّل باليقين؛ كقوله [من الطويل]:

فَقُلتُ لَهُمْ: ظُنُّوا بِأَلْفَيْ مُدَجَّجٍ . . . . . (١)

---

(١) وكل تباريح المحب لقيتها ... سوى أنني لم ألق حتفي بمرصدي
نصحت لعارض وأصحاب عارض ... ورهط بني السوداء والقوم شهدي
فقلت لهم: ظنوا بألفي مدجج ... سراتهم في الفارسي المسرد

لدريد بن الصمة، ينذر قومه بهجوم العدو. ودريد: هو معاوية بن الحرث بن بكر بن علقمة الجشمي: قتل مشركاً يوم حنين، أي: كل الشدائد التي يلقاها المحب من محبوبه لقيتها. والحتف: الهلاك. والمرصد. والمرصاد: الطريق، وفي إضافته لنفسه معنى لطيف، أي: لم أسلك طريقاً فيه حتف لي، بل أسلك غيره فطريقي لا ضرر فيه. ونصحه ونصح له: خلص وصفاً. والشهد ـ بالتشديد: جمع شاهد. ودججه تدجيجاً: غطاه تغطية. والدجة ـ بالتشديد ـ: الظلمة. والدج: المشي بتؤدة. والمدجج: التام السلاح. وقيل: هو بالفتح: الفرس، وبالكسر: الفارس. والسراة: السادة الأشراف بفتح السين، وهي في الأصل: أعلى ظهر الحيوان، فاستعيرت لهم، وقد تضم، فوزنها «فعلة» جمع سرى وزن فعيل على غير قياس؛ إذ قياسه أفعلاء، وهو في الأصل: النهر الصغير: استعير للخير الرئيس، والفارسي: الدروع المعمولة بفارس. والسرد والتسريد: متابعة النسج، يقول: أيقنوا بهجوم جيش عظيم. والألفان: كناية عن الكثرة، أي: جيش كثير مغطى بالسلاح، أشرافه في الدروع الفارسية المتتابعة النسج. والظرفية دالة على سبوغ الدروع لهم. ويروي المسود بالواو وليس بذاك.
ينظر: الحماسة للمرزوقي (٢/ ٨١٢) والمحتسب (٢/ ٣٤٢)، وابن يعيش (٧/ ٨١)، والأصمعيات (١٠٧)، واللسان: (ظنن)، والدر المصون ١/ ٢١٢، فتح القدير ١/ ١٤١، مجالس ثعلب ص ١٩٩، أسرار العربية ص ١٥٦.

ويكون بناء الصرح مناقضة لما ادعاه من العلم واليقين، وقد خفيت على قومه لغباوتهم وبلههم. أو لم تخف عليهم، ولكن كلا كان يخاف على نفسه سوطه وسيفه، وإنما قال: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ ولم يقل: اطبخ لي الآجر واتخذه، لأنه أوّل من عمل الآجر، فهو يعلمه الصنعة، ولأن هذه العبارة أحسن طباقاً لفصاحة القرآن وعلوّ طبقته وأشبه بكلام الجبابرة. وأمر هامان وهو وزيره ورديفه بالإيقاد على الطين منادى باسمه بيا في وسط الكلام: دليل التعظيم[1] والتجبر. وعن عمر ـ رضي الله عنه ـ أنه حين سافر إلى الشام ورأى القصور المشيدة بالآجر فقال: ما علمت أن أحداً بنى بالآجر غير فرعون. والطلوع والإطلاع: الصعود. يقال: طلع الجبل وأطلع: بمعنى.

﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾

الاستكبار بالحق: إنما هو لله تعالى، وهو المتكبر على الحقيقة، أي: المتبالغ في كبرياء الشأن. قال رسول الله ـ ﷺ ـ فيما حكى عن ربه: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في النار» (١١٠٩). وكل مستكبر سواه فاستكباره بغير الحق ﴿يُرْجَعُونَ﴾ بالضم والفتح ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ من الكلام الفخم الذي دل به على عظمة شأنه وكبرياء سلطانه. شبههم استحقاراً لهم واستقلالاً لعددهم[2]. وإن كانوا الكثر الكثير والجم الغفير، بحصيات أخذهنّ آخذ في كفه فطرحهنّ في البحر. ونحو ذلك قوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ﴾ [المرسلات: ٢٧]، ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾﴾ [الحاقة: ١٤]. ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧] وما هي إلا تصويرات وتمثيلات لاقتداره، وأن كل مقدور وإن عظم وجل، فهو مستصغر إلى جنب قدرته.

١١٠٩ ـ أخرجه مسلم (٨/ ٤٢١ ـ النووي): كتاب البر والصلة والآداب، حديث (١٣٦/ ٢٦٢٠)، وهذا الحديث من مفردات مسلم؛ فلم يخرجه غيره من الجماعة.
قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وأبي سعيد عن النبي ـ ﷺ ـ عن ربه. انتهى.

---

(١) قوله «دليل التعظيم» لعله التعظم. (ع)
(٢) عاد كلامه. قال: «وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ مقابلة لاستكباره بفعل عبر عنه بما صورته أخذ حصيات ممتهنات، ثم نبذها، أي: طرحها في اليم بهوان، فذلك تمثيل لاستهانته به وإهلاكه بهذا النوع من الهلاك. والله أعلم.

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾

فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ﴾؟ قلت: معناه: ودعوناهم أئمة دعاة إلى النار[1]، وقلنا: إنهم أئمة دعاة إلى النار، كما يدعى خلفاء الحق أئمة دعاة إلى الجنة. وهو من قولك: جعله بخيلاً وفاسقاً، إذا دعاه وقال: إنه بخيل وفاسق[2]. ويقول أهل اللغة في تفسير فسقه وبخله: جعله بخيلاً وفاسقاً. ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ [الزخرف: ١٩] ومعنى دعوتهم إلى النار: دعوتهم إلى موجباتها من الكفر والمعاصي ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ كما ينصر الأئمة الدعاة إلى الجنة. ويجوز: خذلناهم حتى كانوا أئمة الكفر. ومعنى الخذلان: منع الألطاف، وإنما يمنعها من علم أنها لا تنفع فيه، وهو المصمم على الكفر الذي لا تغني عنه الآيات والنذر، ومجراه مجرى الكناية؛ لأنّ منع الألطاف يردف التصميم، والغرض بذكره: التصميم نفسه، فكأنه قيل: صمموا على الكفر حتى كانوا أئمة فيه دعاة إليه وإلى سوء عاقبته. فإن قلت: فأي فائدة في ترك المردوف إلى الرادفة؟ قلت: ذكر الرادفة يدل على وجود المردوف فيعلم وجود المردوف مع الدليل الشاهد بوجوده، فيكون أقوى لإثباته من ذكره. ألا ترى أنك تقول: لولا أنه مصمم على الكفر مقطوع أمره مثبوت حكمه لما منعت منه الألطاف؟ فبذكر منع الألطاف يحصل العلم بوجود التصميم على الكفر وزيادة، وهو قيام الحجة على وجوده. وينصر هذا الوجه قوله: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ كأنه قيل: وخذلناهم في الدنيا وهم يوم القيامة مخذولون، كما قال: ﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ﴾ أي طرداً وإبعاداً عن الرحمة ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ أي من المطرودين المبعدين.

---

(١) قوله «ودعوناهم أئمة دعاة إلى النار» هذا التأويل وما يأتي بعده في قوله: ويجوز خذلناهم.. إلى آخره: مبنيان على أنه تعالى يجب عليه الصلاح ولا يجوز عليه خلق الشر، وهذا مذهب المعتزلة، أما مذهب أهل السنة فهو أنه لا يجب عليه تعالى شيء، ويجوز عليه خلق الشر كالخير. وقد حقق في التوحيد فلا داعي إلى تأويل الآية بمثل هذا التكلف. (ع)

(٢) قال محمود: «معناه دعوناهم أئمة دعاة إلى النار، كما تقول: جعلته بخيلاً فاسقا إذا دعوته بذلك» قال أحمد: لا فرق عند أهل السنة بين قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾، ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ وبين هذه الآية، فمن حمل الجعل على التسمية فيما نحن فيه فراراً من اعتقاد أن دعاءهم إلى النار مخلوق لله تعالى، فهو بمثابة من حمله على التسمية في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾: فراراً من جعل الليل والنهار مخلوقين لله تعالى، فلا فرق بين نفي مخلوق واحد عن قدرته تعالى ونفي كل مخلوق، نعوذ بالله من ذلك.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

﴿بَصَآئِرَ﴾ نصب على الحال. والبصيرة: نور القلب الذي يستبصر به، كما أن البصر نور العين الذي تبصر به، يريد: آتيناه التوراة أنواراً للقلوب، لأنها كانت عمياء لا تستبصر ولا تعرف حقاً من باطل، وإرشاداً؛ لأنهم كانوا يخبطون في ضلال ﴿وَرَحْمَةً﴾ لأنهم لو عملوا بها وصلوا إلى نيل الرحمة ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ إرادة أن يتذكروا، شبهت الإرادة بالترجي فاستعير لها. ويجوز أن يراد به ترجي موسى عليه السلام[1] لتذكرهم، كقوله تعالى: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ﴾ [طه: ٤٤].

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾

﴿ٱلْغَرْبِىِّ﴾ المكان الواقع في شق الغرب، وهو المكان الذي وقع فيه ميقات موسى عليه السلام من الطور وكتب الله له في الألواح. والأمر المقضي إلى موسى عليه السلام: الوحي الذي أوحى إليه؛ والخطاب لرسول الله ـ ﷺ ـ يقول: وما كنت/ ٢/ ٧٨ب حاضرا المكان الذي أوحينا فيه إلى موسى عليه السلام، ولا كنت ﴿مِنَ﴾ جملة ﴿ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ للوحي إليه، أو على الوحي إليه؛ وهم نقباؤه الذين اختارهم للميقات، حتى تقف من جهة المشاهدة على ما جرى من أمر موسى عليه السلام في ميقاته. وكتبة التوراة له في الألواح، وغير ذلك.

﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾﴾

فإن قلت: كيف يتصل قوله: ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا﴾ بهذا الكلام؟ ومن أي وجه يكون استدراكاً له؟ قلت: اتصاله به وكونه استدراكاً له، من حيث أن معناه: ولكنا أنشأنا بعد عهد الوحي إلى عهدك قروناً كثيرة ﴿فَتَطَاوَلَ﴾ على آخرهم: وهو القرن الذي أنت فيهم ﴿ٱلْعُمُرُ﴾ أي أمد انقطاع الوحي واندرست العلوم، فوجب إرسالك إليهم، فأرسلناك وكسبناك[2] العلم بقصص الأنبياء وقصة موسى عليهم السلام، كأنه قال: وما كنت شاهداً

---

(١) قال محمود: «معناه إرادة تذكرهم، لأن الإرادة تشبه الترجي، فاستعير لها. أو يراد به ترجي موسى عليه السلام» قال أحمد: الوجه الثاني هو الصواب، واحذر الأول فإنه قدري.

(٢) قوله «وكسبناك العلم» كسب يتعدى إلى مفعولين، فيقال: كسبت أهلي خيراً، وكسبت الرجل مالا، كما في الصحاح. (ع)

لموسى وما جرى عليه، ولكنا أوحينا إليك، فذكر سبب الوحي الذي هو إطالة الفترة؛ ودلّ به على المسبب على عادة الله عز وجل في اختصاراته، فإذاً هذا الاستدراك شبيه الاستدراكين بعده ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا﴾ أي مقيماً ﴿فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ وهم شعيب والمؤمنون به ﴿تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا﴾ تقرؤها عليهم تعلماً منهم، يريد: الآيات التي فيها قصة شعيب وقومه، ولكنا أرسلناك وأخبرناك بها وعلمناكها.

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿إِذْ نَادَيْنَا﴾ يريد مناداة موسى عليه السلام ليلة المناجاة وتكليمه، و﴿وَلَـٰكِن﴾ علمناك ﴿رَّحْمَةً﴾ وقرئ: رحمة، بالرفع: أي هي رحمة ﴿مَّآ أَتَىٰهُم﴾ من نذير في زمان الفترة بينك وبين عيسى وهي خمسمائة وخمسون سنة، ونحوه قوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ [يس: ٦].

﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾

﴿وَلَوْلَآ﴾ الأولى امتناعية وجوابها محذوف، والثانية تحضيضية، وإحدى الفاءين للعطف، والأخرى جواب لولا، لكونها في حكم الأمر، من قبل أن الأمر باعث على الفعل، والباعث والمحضض من واد واحد. والمعنى: ولولا أنهم قائلون إذا عوقبوا بما قدّموا من الشرك والمعاصي: هلا أرسلت إلينا رسولاً، محتجين علينا بذلك: لما أرسلنا إليهم، يعني: أن إرسال الرسول إليهم إنما هو ليلزموا الحجة ولا يلزموها، كقوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، ﴿أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾، ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ﴾ [طه: ١٣٤]. فإن قلت: كيف استقام هذا المعنى وقد جعلت العقوبة هي السبب في الإرسال لا القول، لدخول حرف الامتناع عليها دونه؟ قلت: القول هو المقصود بأن يكون سبباً لإرسال الرسل، ولكن العقوبة لما كانت هي السبب للقول وكان وجوده بوجودها، جعلت العقوبة كأنها سبب الإرسال بواسطة القول، فأدخلت عليها لولا، وجيء بالقول معطوفاً عليها بالفاء المعطية معنى السببية[1]، ويؤول معناه إلى قولك: ولولا قولهم هذا إذا أصابتهم مصيبة لما أرسلنا، ولكن اختيرت هذه

---

(١) قال محمود: «لولا الأولى امتناعية، والثانية تخضيضية، والفاء الأولى عاطفة والثانية جواب لولا. =

الطريقة لنكتة: وهي أنهم لو لم يعاقبوا مثلاً على كفرهم وقد عاينوا ما ألجئوا به إلى العلم اليقين: لم يقولوا: ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ [طه: ١٣٤] وإنما السبب في قولهم هذا هو العقاب لا غير لا التأسف على ما فاتهم من الإيمان بخالقهم. وفي هذا من الشهادة القوية على استحكام كفرهم ورسوخه فيهم ما لا يخفى، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨]. ولما كانت أكثر الأعمال تزاول بالأيدي: جعل كل عمل معبراً عنه باجتراح الأيدي وتقديم الأيدي وإن كان من أعمال القلوب، وهذا من الاتساع في الكلام وتصيير الأقل تابعاً للأكثر وتغليب الأكثر على الأقل.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

= والمعنى: لولا أنهم قائلون إذا عوقبوا: لولا أرسلت إلينا رسولاً، محتجين بذلك لما أرسلت إليهم أحداً. فإن قلت: كيف استقام هذا المعنى وقد جعلت العقوبة سبباً في الإرسال لا القول، لدخول حرف الامتناع عليها دونه؟ قلت: العقوبة سبب القول، وهي سبب السبب، فجعلت سبباً وعطف السبب الأصلي عليها بالفاء السببية» قال أحمد: وذلك مثل قوله تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ والسر في جعل سبب السبب سبباً، وعطف السبب الأصلي عليه أمران، أحدهما: أن مزيد العناية يوجب التقديم، وهذا هو السر الذي أبداه سيبويه. الثاني أن في هذا النظم تنبيهاً على سببية كل واحد منهما: أما الأول فلاقترانه بحرف التعليل، وهو «أن» وأما الثاني، فلاقترانه بفاء السبب، ولا يتعاطى هذا المعنى إلا من قولك ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ﴾ لا من قول القائل: أن تذكر إحداهما الأخرى إذا ضلت، وكان بعض النحاة يورد هذه الآية إشكالاً على النحاة وعلى أهل السنة من المتكلمين، فيقول: «لولا» عند أهل الفتن تدل على امتناع جوابها لوجود ما بعدها، وحينئذٍ يكون الواقع بعدها في الآية موجوداً وهو عقوبة هؤلاء المذكورين بتقدير عدم بعثة الرسل، وجوابها المحذوف غير واقع وهو عدم الإرسال، لأنه ممتنع بالأولى. ومتى لم يقع عدم الإرسال كان الإرسال واقعاً ضرورة، فيشكل الواقع بعدها على أهل السنة؛ لأنهم يقولون: لا ظلم قبل بعثة الرسل، فلا تتصور العقوبة بتقدير عدم البعثة، وذلك لأنها واقعة جزاء على مخالفة أحكام الشرع، فإن لم يكن شرع فلا مخالفة ولا عقوبة. ويشكل الجواب على النحاة؛ لأنه يلزم ألا يكون واقعاً وهو عدم بعثة الرسل، لكن الواقع بعدها يقتضي وقوعه، ثم كان مورد هذا الإشكال يجيب عنه بتقدير محذوف. والأصل: ولولا كراهة أن تصيبهم مصيبة وحينئذٍ يزول الإشكال عن الطائفتين. والتحقيق عندي في الجواب خلاف ذلك، وإنما جاء الإشكال من حيث عدم تجويز النحاة لمعنى لولا أن يقولون: أنها تدل على أن ما بعدها موجود وأن جوابها ممتنع به، والتحرير في معناها أنها تدل على أن ما بعدها مانع من جوابها، عكس «لو» فإن معناها لزوم جوابها لما بعدها، ثم المانع قد يكون موجوداً وقد يكون مفروضاً، والآية من قبيل فرض وجود المانع، وكذلك اللزوم في «لو» قد يكون الشيء الواحد لازماً لشيئين، فلا يلزم نفيه من نفي أحد ملزوميه. وعلى هذا التحرير يزول الإشكال الوارد على «لو» في قوله: نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه، فتأمل هذا الفصل فتحته فوائد للمتأمل، والله الموفق.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ وهو الرسول المصدق بالكتاب المعجز مع سائر المعجزات وقطعت معاذيرهم وسدّ طريق احتجاجهم ﴿قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ﴾ من الكتاب المنزل جملة واحدة، ومن قلب العصا حية وفلق البحر وغيرهما من الآيات؛ فجاءوا بالاقتراحات المبنية على التعنت والعناد، كما قالوا: لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك، وما أشبه ذلك ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟﴾ يعني أبناء جنسهم ومن مذهبهم وعنادهم عنادهم، وهم الكفرة في زمن موسى عليه السلام ﴿بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ﴾ وعن الحسن رحمه الله: قد كان للعرب أصل في أيام موسى عليه السلام، فمعناه على هذا: أولم يكفر آباؤهم ﴿قَالُوا۟﴾ في موسى وهارون ﴿سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾ أي تعاونا. وقرئ إظهاراً على الإدغام. وسحران. بمعنى: ذوا سحر. أو جعلوهما سحرين مبالغة في وصفهما بالسحر. أو أرادوا نوعان من السحر ﴿بِكُلٍّ﴾ بكل واحد منهما. فإن قلت: بم علقت قوله من قبل في هذا التفسير؟ قلت: بأولم يكفروا، ولي أن أعلقه بأوتي، فينقلب المعنى إلى أن/ ٢/ ٧٩أ أهل مكة الذين قالوا هذه المقالة كما كفروا بمحمد ﷺ وبالقرآن فقد كفروا بموسى عليه السلام وبالتوراة. وقالوا في موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام: ساحران تظاهرا. أو في الكتابين: سحران تظاهرا؛ وذلك حين بعثوا الرهط إلى رؤساء اليهود بالمدينة يسألونهم عن محمد ﷺ، فأخبروهم أنه نعته وصفته، وأنه في كتابهم، فرجع الرهط إلى قريش فأخبروهم بقول اليهود، فقالوا عند ذلك: ساحران تظاهرا.

﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا﴾ مما أنزل على موسى عليه السلام ومما أنزل عليّ. هذا الشرط من نحو ما ذكرت أنه شرط المدل بالأمر المتحقق لصحته؛ لأنّ امتناع الإتيان بكتاب أهدى من الكتابين أمر معلوم متحقق لا مجال فيه للشكّ. ويجوز أن يقصد بحرف الشكّ: التهكم بهم.

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾

فإن قلت: ما الفرق بين فعل الاستجابة في الآية؛ وبينه في قوله [من الطويل]:

. . . . . فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَاكَ مُجِيبُ[1]

---

(١) قوله «فلم يستجبه عند ذاك مجيب» صدره:

وداعٍ دعا يا مَنْ يجيب إلى الندى ....

اهـ. علّيان. قلت: وقد تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٤٥٦ فراجعه إن شئت اهـ. مصححه.

حيث عدّى بغير اللام؟ قلت: هذا الفعل يتعدّى إلى الدعاء بنفسه وإلى الداعي باللام، ويحذف الدعاء إذا عدّى إلى الداعي في الغالب، فيقال؛ استجاب الله دعاءه أو استجابة له، ولا يكاد يقال: استجاب له دعاءه. وأما البيت فمعناه: فلم يستجب دعاءه، على حذف المضاف. فإن قلت: فالاستجابة تقتضي دعاء ولا دعاء ههنا. قلت: قوله: فأتوا بكتاب أمر بالإتيان والأمر بعث على الفعل ودعاء إليه، فكأنه قال: فإن لم يستجيبوا دعاءك إلى الإتيان بالكتاب الأهدى، فاعلم أنهم قد ألزموا ولم تبق لهم حجة إلا اتباع الهوى، ثم قال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ﴾ لا يتبع في دينه إلا ﴿هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي مطبوعاً على قلبه ممنوع الألطاف ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى﴾ أي لا يلطف بالقوم الثابتين على الظلم الذين اللاطف بهم عابث. وقوله بغير هدى في موضع الحال، يعني: مخذولاً مخلى بينه وبين هواه.

﴿۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾﴾

قرئ ﴿وَصَّلْنَا﴾ بالتشديد والتخفيف. والمعنى: أن القرآن أتاهم متتابعاً متواصلاً، وعداً ووعيداً وقصصاً وعبراً، ومواعظ ونصائح: إرادة أن يتذكروا فيفلحوا، أو نزل عليهم نزولاً متصلاً بعضه في أثر بعض. كقوله: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾﴾ [الشعراء: ٥].

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾

نزلت في مؤمني أهل الكتاب وعن رفاعة بن قرظة: نزلت في عشرة أنا أحدهم. وقيل: في أربعين من مسلمي أهل الإنجيل: اثنان وثلاثون جاءوا مع جعفر من أرض الحبشة، وثمانية من الشام. والضمير في ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾ للقرآن.

﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾

فإن قلت: أي فرق بين الاستئنافين إنه وإنا؟ قلت: الأوّل تعليل للإيمان به، لأن كونه حقاً من الله حقيق بأن يؤمن به. والثاني: بيان لقوله: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾ لأنه يحتمل أن يكون إيماناً قريب العهد وبعيده، فأخبروا أن إيمانهم به متقادم؛ لأنّ آباءهم القدماء قرأوا في الكتب الأول ذكره وأبناءهم من بعدهم ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾ من قبل وجوده ونزوله ﴿مُسْلِمِينَ﴾ كائنين على دين الإسلام؛ لأن الإسلام صفة كل موحد مصدّق للوحي.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾﴾

﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ بصبرهم على الإيمان بالتوراة والإيمان بالقرآن. أو بصبرهم على الإيمان بالقرآن قبل نزوله وبعد نزوله. أو بصبرهم على أذى المشركين وأهل الكتاب. ونحوه ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [الحديد: ٢٨]، ﴿بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ بالطاعة المعصية المتقدمة. أو بالحلم الأذى.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾

﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ توديع ومتاركة. وعن الحسن ـ رضي الله عنه ـ: كلمة حلم من المؤمنين ﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ لا نريد مخالطتهم وصحبتهم فإن قلت: من خاطبوا بقولهم: ﴿وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾؟ قلت: اللاغين الذين دل عليهم قوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا ٱللَّغْوَ﴾.

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾

﴿لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ لا تقدر أن تدخل في الإسلام كل من أحببت أن يدخل فيه من قومك وغيرهم، لأنك عبد لا تعلم المطبوع على قلبه من غيره ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ﴾ يدخل في الإسلام ﴿مَن يَشَآءُ﴾ وهو الذي علم أنه غير مطبوع على قلبه، وأن الألطاف تنفع فيه، فيقرن به ألطافه حتى تدعوه إلى القبول ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ بالقابلين من الذين لا يقبلون. قال الزجاج: أجمع المسلمون أنها نزلت في أبي طالب، وذلك أن أبا طالب قال عند موته: يا معشر بني هاشم، أطيعوا محمداً وصدّقوه تفلحوا وترشدوا. فقال النبي ﷺ: تأمرهم بالنصيحة لأنفسهم وتدعها لنفسك؟ قال: فما تريد يا ابن أخي؟ قال: أريد منك كلمة واحدة فإنك في آخر يوم من أيام الدنيا: أن تقول لا إله إلا الله، أشهد لك بها عند الله. قال: يا ابن أخي، قد علمت إنك/ ٢/ ٧٩ب لصادق، ولكني أكره أن يقال: خرع عند الموت[١]، ولولا أن تكون عليك وعلى بني أبيك غضاضة[٢] ومسبة بعدي، لقلتها، ولأقررت بها عينك عند الفراق، لما أرى من شدّة وجدك ونصيحتك، ولكني سوف أموت على ملة الأشياخ عبد المطلب وهاشم وعبد مناف (١١١٠).

١١١٠ ـ قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ٣١): غريب بهذا اللفظ.
وقال ابن حجر: لم أجده وقصة وفاة أبي طالب في الصحيحن من سعيد بن المسيب عن ابنه بغير =

---

(١) قوله «أكره أن يقال خرع عند الموت» في الصحاح: خرع الرجل ـ بالكسر ـ: ضعف فهو خرع. (ع)

(٢) قوله «غضاضة» أي: مذلة ومنقصة. (ع)

﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾

قالت قريش، وقيل: إن القائل الحارث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف: نحن نعلم أنك على الحق، ولكنا نخاف إن اتبعناك وخالفنا العرب بذلك ـ وإنما نحن أكلة رأس، أي: قليلون ـ أن يتخطفونا من أرضنا، فألقمهم الله الحجر. بأنه مكن لهم في الحرم الذي آمنه بحرمة البيت وآمن قطانه بحرمته، وكانت العرب في الجاهلية حولهم يتغاورون ويتناحرون، وهم آمنون في حرمهم لا يخافون، وبحرمة البيت هم قارّون بواد غير ذي زرع، والثمرات والأرزاق تجبى إليهم من كل أوب، فإذا خولهم الله ما خولهم من الأمن والرزق بحرمة البيت وحدها وهم كفرة عبدة أصنام فكيف يستقيم أن يعرضهم للتخوّف والتخطف، ويسلبهم الأمن إذا ضموا إلى حرمة البيت حرمة الإسلام. وإسناد الأمن إلى أهل الحرم حقيقة، وإلى الحرم مجاز ﴿تجبى إليه﴾ تجلب وتجمع. وقرئ: بالياء والتاء. وقرئ: تجني، بالنون، من الجنى. وتعديته بإلى كقوله: يجنى إليّ فيه، ويجنى إلى الخافة[1]. وثمرات: بضمتين وبضمة وسكون. ومعنى الكلية: الكثرة كقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٢٣]، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ متعلق بقوله: ﴿مِّن لَّدُنَّا﴾ أي قليل منهم يقرون بأنّ ذلك رزق من عند الله، وأكثرهم جهلة لا يعلمون ذلك ولا يفطنون له، ولو علموا أنه من عند الله لعلموا أن الخوف والأمن من عنده، ولما خافوا التخطف إذا آمنوا به وخلعوا أنداده. فإن قلت: بم انتصب رزقاً؟ قلت: إن جعلته مصدراً جاز أن ينتصب بمعنى ما قبله؛ لأنّ معنى ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ ويرزق ثمرات كل شيء: واحد، وأن يكون مفعولاً له. وإن جعلته بمعنى: مرزوق، كان حالاً من الثمرات لتخصصها بالإضافة، كما تنتصب عن النكرة المتخصصة بالصفة.

= هذا السياق وأخص منه. انتهى.

وللحديث شاهد في الصحيحين: أخرجه البخاري (٣/ ٥٨٦ ـ ٥٨٧): كتاب الجنائز: باب إذا قال المشرك عند الموت: لا إله إلا الله، حديث (١٣٦٠) وأطرافه في (٣٨٨٤ ـ ٤٦٧٥ ـ ٤٧٧٢ ـ ٦٦٨٢) ومسلم (١/ ٢٤٤ ـ ٢٤٥ ـ النووي): كتاب الإيمان: باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت، ما لم يشرع في النزع وهو الغرغرة، ونسخ جواز الاستغفار للمشركين حديث (٣٩ ـ ٤٠/ ٢٤) من طريق ابن شهاب عن سعيد بن المسيب عن أبيه به.

---

(١) قوله «ويجني إلى الخافة» في الصحاح «الخافة»: خريطة من أدم يشتار فيها بعسل. وفيه «يشتار»: يجتني. (ع)

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾

هذا تخويف لأهل مكة من سوء عاقبة قوم كانوا في مثل حالهم من إنعام الله عليهم بالرقود في ظلال الأمن وخفض العيش، فغمطوا النعمة وقابلوها بالأشر والبطر[1]، فدمّرهم الله وخرّب ديارهم. وانتصبت ﴿مَعِيشَتَهَا﴾ إمّا بحذف الجار وإيصال الفعل، كقوله تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ﴾ [الأعراف: ١٥٥] وإمّا على الظرف بنفسها، كقولك: زيد ظني مقيم[2]. أو بتقدير حذف الزمان المضاف، أصله: بطرت أيام معيشتها، كخفوق النجم. ومقدم الحاج. وإمّا بتضمين (بطرت) معنى: كفرت وغمطت. وقيل: البطر سوء احتمال الغنى: وهو أن لا يحفظ حق الله فيه ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ من السكنى. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لم يسكنها إلا المسافر ومارّ الطريق يوماً أو ساعة ويحتمل أنّ شؤم معاصي المهلكين بقي أثره في ديارهم، فكل من سكنها من أعقابهم لم يبق فيها إلا قليلاً ﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ تلك المساكن من ساكنيها، أي: تركناها على حال لا يسكنها أحد، أو خرّبناها وسوّيناها بالأرض [من الكامل]:

تَتَخَلَّفُ الآثَارُ عَنْ أَصْحَابِهَا ... حِيناً وَيُدْرِكُهَا الْفَنَاءُ فَتَتْبَعُ[3]

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾

وما كانت عادة ربك أن يهلك القرى في كل وقت ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ﴾ القرية التي هي أمّها، أي: أصلها وقصبتها التي هي أعمالها وتوابعها ﴿رَسُولًا﴾ لإلزام الحجة وقطع

---

(١) قوله «فغمطوا النعمة وقابلوها بالأشر والبطر» أي بطروها وحقروها. والأشر والبطر: شدة المرح والمرح: شدة الفرح. كذا في الصحاح. (ع)

(٢) قوله «كقولك زيد ظني مقيم» أي: في ظني. (ع)

(٣) أين الذي الهرمان من بنيانه؟ ... ما قومه؟ ما يومه؟ ما المصرع؟
تتخلف الآثار عن أصحابها ... حيناً ويدركها الفناء فتتبع

لأبي الطيب حين دخل مصر ورأى الأهرام التي بناها الملك سوريد. وقيل: سنان بن مشلشل. وقيل: إدريس عليه السلام. والهرمان: تثنية هرم ـ كسبب ـ وأراد بهما القريبين من مصر، ويومه: هو زمن ملكه، ويجوز أنه يوم موته، كما أن المصرع مكان الموت، والاستفهام عن هذا بعد الاستفهام عن قومه لاستحضار الصورتين والفرق بين الحالتين، ثم قال: تتخلف، أي: تتأخر الآثار من البنيان والأشجار وغير ذلك زمنا طويلاً بعد أصحابها. ثم يلحقها الفناء فتتبع أصحابها ولو طال زمن تخلفها. ويجوز أن المعنى: حيناً قليلاً. فالتنوين للتكثير أو للتقليل.

المعذرة، مع علمه أنهم لا يؤمنون؛ أو وما كان في حكم الله وسابق قضائه أن يهلك القرى في الأرض حتى يبعث في أم القرى ـ يعني مكة ـ رسولاً وهو محمد ﷺ خاتم الأنبياء. وقرئ: أمها، بضم الهمزة وكسرها لاتباع الجرّ، وهذا بيان لعدله وتقدسه عن الظلم، حيث أخبر بأنه لا يهلكهم إلا إذا استحقوا الهلاك بظلمهم[1]، ولا يهلكهم مع كونهم ظالمين إلا بعد تأكيد الحجة والإلزام ببعثة الرسل، ولا يجعل علمه بأحوالهم حجة عليهم، ونزه ذاته أن يهلكهم وهم غير ظالمين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود: ١١٧] فنصّ في قوله: ﴿بِظُلْمٍ﴾ أنه لو أهلكهم وهم مصلحون لكان ذلك ظلماً منه، وأنّ حاله في غناه وحكمته منافية للظلم، دلّ على ذلك بحرف النفي مع لامه، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣].

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾

وأي شيء أصبتموه من أسباب الدنيا فما هو إلا تمتع وزينة أياماً قلائل، وهي مدة الحياة المتقضية ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ وهو ثوابه ﴿خَيْرٌ﴾ في نفسه من ذلك ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ لأنّ بقاءه دائم سرمد وقرئ/ ٢/ ٨٠أ: يعقلون، بالياء، وهو أبلغ في الموعظة. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن الله خلق الدنيا وجعل أهلها ثلاثة أصناف: المؤمن، والمنافق، والكافر؛ فالمؤمن يتزوّد، والمنافق يتزين، والكافر يتمتع.

﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾

هذه الآية تقرير وإيضاح للتي قبلها. والوعد الحسن: الثواب؛ لأنه منافع دائمة على وجه التعظيم والاستحقاق، وأي شيء أحسن منها، ولذلك سمى الله الجنة بالحسنى. و﴿لَٰقِيهِ﴾ كقوله تعالى: ﴿ولقاهم نضرة وسروراً﴾[الإنسان: ١١]، وعكسه ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩]. ﴿مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ من الذين أحضروا النار. ونحوه ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾

---

(١) قال محمود: «هذا بيان لعدله وتقدسه عن الظلم حتى أخبر بأنه لا يهلكهم إلا إذا استحقوا العذاب ولا يستحقوا حتى تتأكد عليهم الحجة ببعثة الرسل» قال أحمد: هذا إسلاف من الزمخشري لجواب ساقط عن سؤال وارد على القدرية لا جواب لهم عنه، ينشأ السؤال في هذه الآية فيقال: لو كانت العقول تحكم عن الله تعالى بأحكام التكليف، لقامت الحجة على الناس وإن لم يكن بعث رسل، إذ العقل حاكم، فلا يجدون للخلاص من هذا السؤال سبيلا.

[الصافات: ٥٧]، ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ قيل: نزلت في رسول الله ـ ﷺ ـ وأبي جهل. وقيل: في علي وحمزة وأبي جهل. وقيل: في عمار بن ياسر والوليد بن المغيرة. فإن قلت: فسر لي الفاءين وثم، وأخبرني عن مواقعها. قلت: قد ذكر في الآية التي قبلها متاع الحياة الدنيا وما عند الله وتفاوتهما، ثم عقبه بقوله: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ﴾على معنى: أبعد هذا التفاوت الظاهر يسوّي بين أبناء الآخرة وأبناء الدنيا، فهذا معنى الفاء الأولى وبيان موقعها. وأمّا الثانية فللتسبيب؛ لأن لقاء الموعود مسبب عن الوعد الذي هو الضمان في الخير. وأمّا «ثم» فلتراخي حال الإحضار عن حال التمتيع، لا لتراخي وقته عن وقته. وقرئ: (ثم هو) بسكون الهاء، كما قيل عضْد في عضُد، تشبيهاً للمنفصل بالمتصل. وسكون الهاء في: فهو، وهو، ولهو: أحسن؛ لأنّ الحرف الواحد لا ينطق به وحده فهو كالمتصل.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾

﴿شُرَكَآءِىَ﴾ مبني على زعمهم، وفيه تهكم. فإن قلت: زعم يطلب مفعولين؛ كقوله [من الطويل]:

. . . . . وَلَمْ أَزْعُمْكِ عَنْ ذَاكَ مَعْزِلاً[1]

فأين هما؟ قلت: محذوفان، تقديره: الذين كنتم تزعمونهم شركائي. ويجوز حذف المفعولين في باب ظننت، ولا يصح الاقتصار على أحدهما.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ الشياطين أو أئمة الكفر ورءوسه. ومعنى حق عليهم القول: وجب عليهم مقتضاه وثبت، وهو قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩] و﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ مبتدأ، و﴿ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ﴾ صفته، والراجع إلى الموصول محذوف، و﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ﴾ الخبر. والكاف صفة مصدر محذوف، تقديره: أغويناهم، فغووا غيا مثل ما

---

(١) وإن الذي قد عاش يا أم مالك يموت ولم أزعمك عن ذاك معزلا

يقول: وإن كل حي ـ وإن طال عمره ـ يموت. ولم أظنك يا أم مالك معزلا عن ذلك الحكم أو الموت. والمعزل: مكان العزلة والانفراد، أي: لم أظنك في معزل عنه، أو ذات معزل، أو معتزلة، أو نفس المقول مبالغة.

البيت للنابغة الجعدي، ينظر ديوانه ص ١١٤، شرح أبيات سيبويه (١/ ٨٧)، الكتاب (١/ ١٢١).

غوينا[1]، يعنون: أنا لم نغو إلا باختيارنا، لا أن فوقنا مغوين أغوونا بقسر منهم وإلجاء. أو دعونا إلى الغيّ وسوّلوه لنا، فهؤلاء كذلك غووا باختيارهم؛ لأن إغواءنا لهم لم يكن إلا وسوسة وتسويلاً لا قسراً وإلجاء، فلا فرق إذاً بين غينا وغيهم. وإن كان تسويلنا داعياً لهم إلى الكفر، قد كان في مقابلته دعاء الله لهم إلى الإيمان بما وضع فيهم من أدلة العقل، وما بعث إليهم من الرسل وأنزل عليهم من الكتب المشحونة بالوعد والوعيد والمواعظ والزواجر، وناهيك بذلك صارفاً عن الكفر وداعياً إلى الإيمان. وهذا معنى ما حكاه الله عن الشيطان ﴿وَعَدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ والله تعالى قدّم هذا المعنى أوّل شيء، حيث قال لإبليس ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾. ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾ منهم ومما اختاروه من الكفر بأنفسهم، هوى منهم للباطل ومقتاً للحق، لا بقوّة منا على استكراههم ولا سلطان ﴿مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ إنما كانوا يعبدون أهواءهم ويطيعون شهواتهم. وإخلاء الجملتين من العاطف، لكونهما مقرّرتين لمعنى الجملة الأولى.

﴿وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾

﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ﴾ لوجه من وجوه الحيل يدفعون به العذاب. أو لو أنهم كانوا مهتدين مؤمنين، لما رأوه. أو تمنوا لو كانوا مهتدين. أو تحيروا عند رؤيته وسدروا[2] فلا يهتدون طريقا. حكى أوّلاً ما يوبخهم به من اتخاذهم له شركاء، ثم ما يقوله الشياطين أو أئمتهم عند توبيخهم لأنهم إذا وبخوا بعبادة الآلهة، اعتذروا بأن الشياطين هم الذين استغووهم وزينوا لهم عبادتها، ثم ما يشبه الشماتة بهم من استغاثتهم آلهتهم وخذلانهم لهم وعجزهم عن نصرتهم، ثم ما يبكتون به من الاحتجاج عليهم بإرسال الرسل وإزاحة العلل ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ﴾ فصارت الأنباء كالعمي عليهم جميعاً لا تهتدي إليهم ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ لا يسأل بعضهم بعضاً كما يتساءل الناس في المشكلات، لأنهم يتساوون جميعاً في عمى الأنباء عليهم والعجز عن الجواب. وقرئ: فعميت، والمراد بالنبأ: الخبر عما أجاب به المرسل إليه رسوله، وإذا كانت الأنبياء لهول ذلك اليوم يتتعتعون في الجواب عن

---

(١) قال السمين الحلبي: وهذا الوجه منعه أبو علي قال: لأنه ليس في الخبر زيادة فائدة على ما في صفته. الدر المصون.

(٢) قوله «وسدروا» أي تحيروا. أفاده الصحاح. (ع)

مثل هذا السؤال، ويفوّضون الأمر إلى علم الله، وذلك/ ٢/ ٨٠ب قوله تعالى: ﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾ فما ظنك بالضُلال من أممهم.

﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾

﴿فَأَمَّا مَن تَابَ﴾ من المشركين من الشرك، وجمع بين الإيمان والعمل الصالح ﴿فَعَسَىٰٓ أَن﴾ يفلح عند الله، و«عسى» من الكرام تحقيق. ويجوز أن يراد: ترجى التائب وطمعه، كأنه قال: فليطمع أن يفلح.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾﴾

الخيرة من التخير، كالطيرة من التطير: تستعمل بمعنى المصدر هو التخير، وبمعنى المتخير كقولهم: محمد خيرة الله من خلقه ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ بيان لقوله: ﴿وَيَخْتَارُ﴾ لأنّ معناه: ويختار ما يشاء، ولهذا لم يدخل العاطف. والمعنى: أنّ الخيرة لله تعالى في أفعاله، وهو أعلم بوجوه الحكمة فيها، ليس لأحد من خلقه أن يختار عليه. قيل: السبب فيه قول الوليد بن المغيرة: (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) يعني: لا يبعث الله الرسل باختيار المرسل إليهم. وقيل: معناه ويختار الذي لهم فيه الخيرة، أي: يختار للعباد ما هو خير لهم وأصلح، وهو أعلم بمصالحهم من أنفسهم، من قولهم في الأمرين: ليس فيهما خيرة لمختار. فإن قلت: فأين الراجع من الصلة إلى الموصول إذا جعلت ما موصولة؟ قلت: أصل الكلام: ما كان لهم فيه الخيرة، فحذف «فيه» كما حذف «منه» في قوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣] لأنه مفهوم ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي الله بريء من إشراكهم وما يحملهم عليه من الجراءة على الله واختيارهم عليه ما لا يختار.

﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾

﴿مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ من عداوة رسول الله وحسده ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من مطاعنهم فيه. وقولهم: هلا اختير عليه غيره في النبوّة ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾ وهو المستأثر بالإلٰهية المختص بها، و﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تقرير لذلك، كقولك: الكعبة القبلة، لا قبلة إلا هي. فإن قلت: الحمد في الدنيا ظاهر فما الحمد في الآخرة؟ قلت: هو قولهم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا

﴿ٱلْحَزَنَ﴾، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥] والتحميد هناك على وجه اللذة لا الكلفة. وفي الحديث: يلهمون التسبيح والتقديس (١١١١) ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ القضاء بين عباده.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾

﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ وقرئ أريتم: بحذف الهمزة، وليس بحذف قياسي ومعناه: أخبروني من يقدر على هذا؟ والسرمد: الدائم المتصل، من السرد وهو المتابعة. ومنه قولهم في الأشهر الحرم: ثلاثة سرد، وواحد فرد، والميم مزيدة. ووزنه فعمل. ونظيره. دلامص، من الدلاص[1]. فإن قلت: هلا قيل: بنهار تتصرفون فيه، كما قيل: ﴿بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾؟ قلت: ذكر الضياء وهو ضوء الشمس: لأن المنافع التي تتعلق به متكاثرة، ليس التصرف في المعاش وحده، والظلام ليس بتلك المنزلة، ومن ثمة قرن بالضياء ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ لأنّ السمع يدرك ما لا يدركه البصر من ذكر منافعه ووصف فوائده، وقرن بالليل ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ لأنّ غيرك يبصر من منفعة الظلام ما تبصره. وأنت من السكون ونحوه ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ زواج بين الليل والنهار لأغراض ثلاثة: لتسكنوا في أحدهما وهو الليل، ولتبتغوا من فضل الله في الآخر وهو النهار ولإرادة شكركم.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾﴾

١١١١ ـ أخرجه مسلم في صحيحه: (٩/ ١٩٠ ـ النووي) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في صفات الجنة وأهلها وتسبيحهم فيها بكرة وعشيًا، حديث (١٨ ـ ١٩/ ٢٨٣٥)، وأبو داود (٤/ ٢٣٦): كتاب السنة: باب في الشفاعة، حديث (٤٧٤١) مختصراً.

كلاهما من طريق الأعمش عن أبي سفيان عن جابر به.

قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه مسلم من حديث جابر في أثناء حديث في صفة أهل الجنة: وفيه «يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس»، وفي رواية: «التسبيح والتكبير». انتهى.

---

(١) قوله «ونظيره دلامص من الدلاص» في الصحاح، الدلاص: اللين البراق. والدلامص: البراق. يقال: دلصت الدرع ـ بالفتح. (ع)

وقد سلكت بهذه الآية طريقة اللف في تكرير التوبيخ باتخاذ الشركاء: إيذان بأن لا شيء أجلب لغضب الله من الإشراك به، كما لا شيء أدخل في مرضاته من توحيده. اللهم فكما أدخلتنا في أهل توحيدك، فأدخلنا في الناجين من وعيدك.

﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾

﴿وَنَزَعْنَا﴾ وأخرجنا ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ وهو نبيهم؛ لأن أنبياء الأمم شهداء عليهم، يشهدون بما كانوا عليه ﴿فَقُلْنَا﴾ للأمة ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ فيما كنتم عليه من الشرك ومخالفة الرسول ﴿فَعَلِمُوا﴾ حينئذٍ ﴿أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾ ولرسوله، لا لهم ولشياطينهم ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ وغاب عنهم غيبة الشيء الضائع ﴿مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من الكذب والباطل.

﴿۞ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾

﴿قَارُونَ﴾ اسم أعجمي مثل هارون، ولم ينصرف للعجمة والتعريف، ولو كان فاعولا من قرن لانصرف. وقيل: معنى كونه من قومه أنه آمن به. وقيل: كان إسرائيلياً ابن عم موسى: هو قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب. وموسى بن عمران بن قاهث. وقيل: كان موسى ابن أخيه، وكان يسمى المنور لحسن صورته، وكان أقرأ بني إسرائيل للتوراة، ولكنه نافق كما نافق السامري وقال: إذا كانت النبوّة لموسى عليه السلام، والمذبح والقربان إلى هارون فمالي؟ وروي: أنه لما جاوز بهم موسى البحر وصارت الرسالة والحبورة لهارون يقرّب القربان ويكون رأساً فيهم ـ وكان القربان إلى موسى فجعله موسى إلى أخيه ـ وجد قارون في نفسه وحسدهما، فقال لموسى: الأمر لكما ولست على شيء/ ٢/ ٨١أ، إلى متى أصبر؟ قال موسى: هذا صنع الله قال: والله لا أصدق حتى تأتي بآية، فأمر رؤساء بني إسرائيل أن يجيء كل واحد بعصاه، فحزمها وألقاها في القبة التي كان الوحي ينزل عليه فيها، وكانوا يحرسون عصيهم بالليل، فأصبحوا وإذا بعصا هارون تهتز ولها ورق أخضر، وكانت من شجر اللوز، فقال قارون: ما هو بأعجب مما تصنع من السحر ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ من البغي وهو الظلم. قيل: ملكه فرعون على بني إسرائيل فظلمهم. وقيل: من البغي وهو الكبر والبذخ: تبذخ عليهم بكثرة ماله وولده. قيل: زاد عليهم في

الثياب شبراً. المفاتح: جمع مفتح بالكسر: وهو ما يفتح به. وقيل هي الخزائن، وقياس واحدها: مفتح ـ بالفتح. ويقال: ناء به الحمل، إذا أثقله حتى أماله. والعصبة: الجماعة الكثيرة والعصابة: مثلها. واعصوصبوا: اجتمعوا. وقيل: كانت تحمل مفاتيح خزائنه ستون بغلاً، لكل خزانة مفتاح، ولا يزيد المفتاح على أصبع. وكانت من جلود. قال أبو رزين: يكفي الكوفة مفتاح، وقد بولغ في ذكر ذلك بلفظ: الكنوز، والمفاتح، والنوء، والعصبة، وأولى القوة. وقرأ بديل بن ميسرة: لينوء بالياء. ووجهه أن يفسر المفاتح بالخزائن، ويعطيها حكم ما أضيفت إليه للملابسة والاتصال، كقولك ذهبت أهل اليمامة. ومحل إذ منصوب بتنوء ﴿لَا تَفْرَحْ﴾ كقوله: ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣]، وقول القائل [من الطويل]:

وَلَسْتُ بِمِفْرَاحٍ إِذَا الدَّهْرُ سَرَّنِي . . . . . (١)

وذلك أنه لا يفرح بالدنيا إلا من رضي بها واطمأن. وأمّا من قلبه إلى الآخرة ويعلم أنه مفارق ما فيه عن قريب، لم تحدّثه نفسه بالفرح. وما أحسن ما قال القائل [من الوافر]:

أَشَدُّ الغَمِّ عِنْدِي فِي سُرُورٍ تَيَقَّنَ عَنْهُ صَاحِبُهُ انْتِقَالا (٢)

﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ من البغي والشروة ﴿ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ بأن تفعل فيه أفعال الخير من أصناف الواجب والمندوب إليه، وتجعله زادك إلى الآخرة ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ﴾ وهو أن تأخذ منه ما يكفيك ويصلحك ﴿وَأَحْسِن﴾ إلى عباد الله ﴿كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أو أحسن بشكرك وطاعتك لله كما أحسن إليك. والفساد في الأرض: ما كان عليه من الظلم والبغي. وقيل: إن القائل موسى عليه السلام. وقرئ: واتبع.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ

---

(١) ولست بمفراح إذا الدهر سرني ولا جازع من صرفه المتقلب
ولا أبتغي شرًا إذا الشر تاركي ولكن متى أحمل على الشر أركب
لهدبة بن خشرم لما قاده معاوية إلى الحرة ليقتص منه في زياد بن زيد العذري، فلقيه عبد الرحمن بن حسان فاستنشده فأنشده ذلك. والمفراح: كثير الفرح. والمراد: نفي الفرح من أصله. وصرف الدهر: حدثانه. وإذا: شرطية فلا بد بعدها من فعل، أي: إذا كان الشر تاركي. وأحمل مبني للمجهول، وأركب للفاعل. والمعنى: أني جربت الدهر فإذا هو خئون، ومع ذلك لا أتضعضع.

(٢) لأبي الطيب، أي: أشد الغم عندي وقت السرور الذي تيقن صاحبه الانتقال عنه، وهكذا سرور الدنيا كله.

﴿أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾

﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي على استحقاق واستيجاب لما فيّ من العلم الذي فضلت به الناس، وذلك أنه كان أعلم بني إسرائيل بالتوراة. وقيل: هو علم الكيمياء. عن سعيد بن المسيب: كان موسى عليه السلام يعلم علم الكيمياء، فأفاد يوشع بن نون ثلثه، وكالب بن يوفنا ثلثه، وقارون ثلثه، فخدعهما قارون حتى أضاف علمهما إلى علمه فكان يأخذ الرصاص والنحاس فيجعلهما ذهباً. وقيل: علم الله موسى علم الكيمياء، فعلمه موسى أخته، فعلمته أخته قارون. وقيل: هو بصره بأنواع التجارة والدهقنة[1] وسائر المكاسب. وقيل: ﴿عِندِىٓ﴾ معناه: في ظني، كما تقول الأمر عندي كذا، كأنه قال: إنما أوتيته على علم، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ﴾ [الزمر: ٤٩] ثم زاد ﴿عِندِىٓ﴾ أي هو في ظني ورأيي هكذا. يجوز أن يكون إثباتاً لعلمه بأنّ الله قد أهلك من القرون قبل من هو أقوى منه وأغنى، لأنه قد قرأه في التوراة، وأخبر به موسى، وسمعه من حفاظ التواريخ والأيام كأنه قيل ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ﴾ في جملة ما عنده من العلم هذا، حتى لا يغتر بكثرة ماله وقوّته. ويجوز أن يكون نفياً لعلمه بذلك؛ لأنه لما قال: أوتيته على علم عندي، فتنفج بالعلم[2] وتعظم به. قيل: أعنده مثل ذلك العلم الذي ادعاه ورأى نفسه به مستوجبة لكل نعمة، ولم يعلم هذا العلم النافع حتى يقى به نفسه مصارع الهالكين ﴿وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ للمال، أو أكثر جماعة وعدداً. فإن قلت: ما وجه اتصال قوله: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ بما قبله؟ قلت: لما ذكر قارون من أهلك من قبله من القرون الذين كانوا أقوى منه وأغنى، قال على سبيل التهديد له: والله مطلع على ذنوب المجرمين، لا يحتاج إلى سؤالهم عنها واستعلامهم. وهو قادر على أن يعاقبهم عليها، كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٦]، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٣] وما أشبه ذلك.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾

﴿فِى زِينَتِهِۦ﴾ قال الحسن: في الحمرة والصفرة. وقيل: خرج على بغلة شهباء عليها

---

(١) قوله «والدهقة» أي الزراعة، كما عبر غيره. (ع)

(٢) قوله «فتنفج بالعلم» أي ترفع وتفاخر وتكبر. أفاده الصحاح. (ع)

الأرجوان[1] وعليها سرج من ذهب، ومعه أربعة آلاف على زيه. وقيل: عليهم وعلى خيولهم الديباج الأحمر، وعن يمينه ثلاثمائة غلام، وعن يساره ثلاثمائة جارية، بيض عليهنّ الحلي والديباج. وقيل في تسعين ألفاً عليهم المعصفرات، وهو أوّل يوم رؤي فيه المعصفر: كان المتمنون قوماً مسلمين وإنما تمنوه على سبيل الرغبة في اليسار والاستغناء كما هو عادة البشر. وعن قتادة: تمنوه ليتقربوا به إلى الله وينفقوه في سبل الخير. وقيل: كانوا قوماً كفاراً. الغابط: هو الذي يتمنى مثل نعمة/ ٢/ ٨١ب صاحبه من غير أن تزول عنه. والحاسد: هو الذي يتمنى أن تكون نعمة صاحبه له دونه فمن الغبطة قوله تعالى: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ﴾ ومن الحسد قوله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ وقيل لرسول الله ـ ﷺ ـ: هل يضر الغبط؟ فقال: «لا إلا كما يضر العضاه الخبط»[2] (١١١٢)، والحظ: الجدّ، وهو البخت والدولة: وصفوه بأنه رجل مجدود مبخوت، يقال: فلان ذو حظ، وحظيظ، ومحظوظ، وما الدنيا إلا أحاظ وجدود.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾

ويلك: أصله الدعاء بالهلاك، ثم استعمل في الزجر والردع والبعث على ترك ما لا يرتضى، كما استعمل: لا أبا لك. وأصله الدعاء على الرجل بالأقراف[3] في الحث على الفعل. والراجع في ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ للكلمة التي تكلم بها العلماء، أو للثواب، لأنه في

١١١٢ ـ أخرجه الطبراني في معجمه، وإبراهيم الحربي في كتابه «غريب الحديث»، والسرقسطي في غريبه بلفظ المصنف كما في تخريج الكشاف للزيلعي (ج ٣/ ٣٢ ـ ٣٣).
قال الحافظ في تخريج الكشاف: ذكره ثابت السرقسطي في الغريب هكذا بغير إسناد. وأخرجه إبراهيم الحربي في الغريب من طريق ابن أبي حسين «أن سائلاً سأل النبي ـ ﷺ ـ أيضر الناس الغبط؟ قال: نعم كما يضر العضاه الخبط، بهذا اللفظ أخرجه الطبراني من رواية أم الدرداء قالت: قلت: يا رسول الله. فذكره. لكن قال: «الشجر» بدل العضاه. قال: الحربي الغبط إرادة السعة. وقال ثابت: الغبط الحسد. انتهى.

---

(١) قوله «بغلة شهباء عليها الأرجوان» في الصحاح: قطيفة حمراء أرجوان. وفيه أيضاً: الأرجوان صبغ أحمر شديد الحمرة، ويقال: هو بالفارسية أرغوان، وهو شجر له نور أحمر أحسن ما يكون. (ع)

(٢) قوله «إلا كما يضر العضاه الخبط» في الصحاح «العضاه»: كل شجر يعظم وله شوك. وفيه «الخبط»: ضرب الشجرة بالعصا ليسقط ورقها. (ع)

(٣) قوله «الدعاء على الرجل بالأقراف» أي بفساد الأب. أفاده الصحاح. (ع)

معنى المثوبة أو الجنة، أو للسيرة والطريقة، وهي الإيمان والعمل الصالح ﴿ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ على الطاعات وعن الشهوات وعلى ما قسم الله من القليل عن الكثير. كان قارون يؤذي نبي الله موسى عليه السلام كل وقت، وهو يداريه للقرابة التي بينهما، حتى نزلت الزكاة فصالحه عن كل ألف دينار على دينار، وعن كل ألف درهم على درهم، فحسبه فاستكثره فشحت به نفسه، فجمع بني إسرائيل وقال: إنّ موسى أرادكم على كل شيء، وهو يريد أن يأخذ أموالكم، فقالوا: أنت كبيرنا وسيدنا، فمر بما شئت، قال: نبرطل فلانة البغيّ حتى ترميه بنفسها فيرفضه بنو إسرائيل، فجعل لها ألف دينار. وقيل: طستاً من ذهب. وقيل: طَستاً من ذهب مملوءة ذهباً. وقيل: حكمها فلما كان يوم عيد قام موسى فقال: يا بني إسرائيل، من سرق قطعناه، ومن افترى جلدناه، ومن زنى وهو غير محصن جلدناه، وإن أحصن رجمناه، فقال قارون: وإن كنت أنت؟ قال: وإن كنت أنا، قال: فإنّ بني إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة، فأحضرت، فناشدها موسى بالذي فلق البحر، وأنزل التوراة أن تصدق. فتداركها الله فقالت: كذبوا، بل جعل لي قارون جعلاً على أن أقذفك لنفسي، فخرّ موسى ساجداً يبكي وقال: يا رب، إن كنت رسولك فاغضب لي. فأوحى إليه: أن مر الأرض بما شئت، فإنها مطيعة لك. فقال: يا بني إسرائيل، إنّ الله بعثني إلى قارون كما بعثني إلى فرعون، فمن كان معه فليلزم مكانه، ومن كان معي فليعتزل، فاعتزلوا جميعاً غير رحلين ثم قال: يا أرض خذيهم، فأخذتهم إلى الركب، ثم قال: خذيهم، فأخذتهم إلى الأوساط، ثم قال: خذيهم، فأخذتهم إلى الأعناق، وقارون وأصحابه يتضرعون إلى موسى عليه السلام ويناشدونه بالله والرحم، وموسى لا يلتفت إليهم لشدّة غضبه، ثم قال: خذيهم، فانطبقت عليهم. وأوحى الله إلى موسى: ما أفظك: استغاثوا بك مراراً فلم ترحمهم، أما وعزتي لو إياي دعوا مرة واحدة لوجدوني قريباً مجيباً (١١١٣)، فأصبحت بنو

١١١٣ ـ أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٠٨ ـ ٤٠٩) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .اهـ.
وأخرجه أيضاً عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ١٣)، والطبري في تفسيره (١٠/ ١١١ ـ ١١٢) رقم (٢٧٦٣٩)؛ كلهم من طريق عبد الله بن الحارث عن ابن عباس به، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٢٦٣)، وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم.
قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه عبد الرزاق والطبراني. من رواية علي بن زيد عن عبد الله بن الحارث بن نوفل الهاشمي. قال: فذكره موقوفاً. ووصله الحاكم بذكر ابن عباس. قال: «لما أتى موسى قومه أمرهم بالزكاة فجمعهم قارون. فذكره باختصار. قوله وفي الأخبار والآثار ما يدل عليه، يعني: وقوع الرعب في قلوب جميع الناس يوم الموقف يمكن أن يستدل له بحديث الشفاعة الطويل، ففي المتفق عليه عن أبي هريرة في حديث الشفاعة قال: «يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، فيبصرهم الناظر، ويسمعهم الداعي، وتدنو منهم الشمس، فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون، وفيه قول آدم وغيره: نفسي نفسي»، واتفقا عليه من حديث أنس كذلك. انتهى.

إسرائيل يتناجون بينهم: إنما دعا موسى على قارون يستبد بداره وكنوزه، فدعا الله حتى خسف بداره وأمواله ﴿مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ من المنتقمين من موسى عليه السلام، أو من الممتنعين من عذاب الله. يقال: نصره من عدوه فانتصر، أي: منعه منه فامتنع.

﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾

قد يذكر الأمس ولا يراد به اليوم الذي قبل يومك، ولكن الوقت المستقرب على طريق الاستعارة ﴿مَكَانَهُۥ﴾ منزلته من الدنيا ﴿وي﴾ مفصولة عن كأن، وهي كلمة تنبُّهٍ على الخطأ وتندُّم. ومعناه: أن القوم قد تنبهوا على خطئهم في تمنيهم وقولهم: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ﴾ وتندموا ثم قالوا: ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي: ما أشبه الحال بأن الكافرين لا ينالون الفلاح، وهو مذهب الخليل وسيبويه؛ قال [من الخفيف]:

وَيْ كَأَنْ مَنْ يَكُنْ لَهُ نَشَبٌ يُحْـ ـبَبْ وَمَنْ يَفْتَقِرْ يَعِشْ عِيشَ ضُرّ[1]

---

(١) سالتاني الطلاق أن رأتا ما لي قليلاً قد جئتماني بنكر
وي كأن من يكن له نشب يحـ ـبب ومن يفتقر يعش عيش ضر
ويجنب سر النجي ولكـ ـن أخا المال محضر كل سر

لزيد بن عمرو بن نفيل القرشي. وقيل: لسعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين بالجنة. وقيل: لنبيه بن الحجاج بن عامر، قتل كافراً يوم بدر. وسألتاني بقلب الهمزة ألفاً للوزن، وهي لغة قليلة، والضمير لزوجتيه، والطلاق مفعول ثان، وأن رأتا: أي لرؤيتهما، وقل: يحتمل أنه فعل ماض، فلا بد به من تقدير محذوف قبله به يتم الكلام، أي: لأن رأتاني قل مالي. أو لرؤيتهما أني قل مالي. ويحتمل أنه اسم بمعنى قليل، ولا حذف في الكلام، فالمعنى: لأن رأتا قليل مالي، أي: مالي القليل، والتفت من الغيبة إلى خطابهما بقوله: قد جئتماني بنكر، أي: منكر. وفيه معنى التعجيب من حالهما، و«وي»: اسم فعل للتعجب، وقيل: لفظه تيقظ وتندم، وكأن للظن أو للتحقيق، كما أجازه الكوفيون، وهي مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، وقيل: لا اسم للمخففة. والنشب: المال. ويعش عيش ضرّ، أي: يبغض. والنجي ـ بالتشديد ـ: المناجي، أي المتكلم بالسر. ويجنب: مبني للمجهول. وسر: مفعوله الثاني. وأخا المال: صاحب المال. ومحضر: اسم مفعول، وكل مفعوله الثاني.
ينظر: خزانة الأدب ٦/٤٠٤، ٤٠٨، ٤١٠، والدرر ٥/٣٠٥، وذيل سمط اللآلي ص ١٠٣، والكتاب ٢/١٥٥، ولنبيه بن الحجاج في الأغاني ١٧/٢٠٥، وشرح أبيات سيبويه ٢/١١، ولسان العرب (وا)، (ويا)، وبلا نسبة في الجنى الداني ص ٣٥٣، والخصائص ٣/٤١، ١٦٩، وشرح الأشموني ٢/٤٨٦، وشرح المفصّل ٤/٧٦، ومجالس ثعلب ١/٣٨٩، والمحتسب ٢/١٥٥، وهمع الهوامع ٢/١٠٦.

وحكى الفراء أنّ أعرابية قالت لزوجها: أين ابنك؟ فقال: وي كأنه وراء البيت. وعند الكوفيين أنّ «ويك» بمعنى: ويلك، وأنّ المعنى ألم تعلم أنه لا يفلح الكافرون ويجوز أن تكون الكاف كاف الخطاب مضمومة إلى وي؛ كقوله [من الكامل]:

. . . . . وَيْـكَ عَـنْـتَـرُ أَقْـدِمِ[1] . . . . . .

وأنه بمعنى لأنه، واللام لبيان المقول لأجله هذا القول، أو لأنه لا يفلح الكافرون كان ذلك، وهو الخسف بقارون، ومن الناس من يقف على (وي) ويبتدىء (كأنه) ومنهم من يقف على (ويك). وقرأ الأعمش لولا منّ الله علينا. وقرئ ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾[2] وفيه ضمير الله. ولا نخسف بنا، كقولك: انقطع به، ولتخسف بنا.

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾

﴿تِلْكَ﴾ تعظيم لها وتفخيم لشأنها، يعني/ ٢/ ٨٢أ: تلك التي سمعت بذكرها وبلغك وصفها. لم يعلق الموعد[3] بترك العلو والفساد، ولكن بترك إرادتهما وميل القلوب إليهما، كما قال: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ [هود: ١١٣] فعلق الوعيد بالركون وعن علي ـ رضي الله عنه ـ: إنّ الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه، فيدخل تحتها (١١١٤). وعن الفضيل أنه قرأها ثم قال: ذهبت الأماني

١١١٤ ـ أخرجه الطبري في تفسيره (١٠/ ١١٥) رقم (٢٧٦٥٥)، والواحدي في تفسيره الوسيط (٣/ ٤١٠) كلاهما من طريق أشعث السمان عن أبي سلمان الأعرج عن علي موقوفاً. =

---

(١) ولقد شفى نفسي وأذهب سقمها قيل الفوارس: ويك عنتر أقدم

لعنترة بن شداد من معلقته. ويروى: وأبرأ سقمها. ويروى: وأذهب غمها. ويروى: قول، بدل: قيل. وكلاهما مصدر. وويك: اسم فعل للتعجب، لكن لا يلائم البيت. وقيل: كلمة تنبيه، والكاف حرف خطاب. وقال الكسائي: أصل «ويك»: ويلك، فالكاف ضمير مجرور، لكن تبعد ملاءمته للبيت. وعنتر: منادى مرخم، وحسن الترخيم وحذف حرف النداء: أن المقام للاهتمام وسرعة الكلام، وأقدم: أي أقبل على العدو، لتمنعنا بأسه.
ينظر: ديوانه ص ٢١٩، والجنى الداني ص ٣٥٣، وخزانة الأدب ٦/ ٤٠٦، ٤٠٨، ٤٢١، وشرح الأشموني ٢/ ٤٨٦، وشرح شواهد المغني ص ٤٨١، ٧٨٧، وشرح المفصل ٤/ ٧٧، والصاحبي في فقه اللغة ص ١٧٧، ولسان العرب (ويا)، والمحتسب ١/ ١٦، ٢/ ٥٦، والمقاصد النحويّة ٤/ ٣١٨، وبلا نسبة في مغني اللبيب ص ٣٦٩.

(٢) قوله: «وقرىء: لخسف بنا» يفيد أن القراءة المشهورة: لخسف، مبنياً للمجهول. (ع)

(٣) قوله «لم يعلق الموعد» لعله: الوعد. (ع)

ههنا[1]. وعن عمر بن عبد العزيز أنه كان يردّدها حتى قبض. ومن الطماع من يجعل العلوّ لفرعون، والفساد لقارون، متعلقاً بقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤]، ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٧٧] ويقول: من لم يكن مثل فرعون وقارون فله تلك الدار الآخرة، ولا يتدبر قوله: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ كما تدبره عليّ والفضيل وعمر.

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾

معناه: فلا يجزون، فوضع ﴿ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ موضع الضمير؛ لأن في إسناد عمل السيئة إليهم مكرراً. فضل تهجين لحالهم، وزيادة تبغيض للسيئة إلى قلوب السامعين ﴿إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ إلا مثل ما كانوا يعملون، وهذا من فضله العظيم وكرمه الواسع أن لا يجزي السيئة إلا بمثلها، ويجزي الحسنة بعشر أمثالها وبسبعمائة، وهو معنى قوله: ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾﴾

= وقال ابن حجر: إسناده ضعيف .اهـ.
وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٢٦٥) وزاد نسبته إلى ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن علي موقوفاً.
قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه الطبري والواحدي من رواية وكيع عن أشعث السمان عن أبي سلام الأعرج عن علي بهذا موقوفاً وإسناده ضعيف. انتهى.

(١) قال محمود: «لم يعلق الوعد بترك العلو والفساد ولكن بترك إرادتهما، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ فعلق الوعيد بالركون إلى الظلمة. وعن علي أن الرجل يعجبه أن يكون شراك نعله خيراً من شراك نعل أخيه فيدخل تحتها. وعن عمر بن عبد العزيز أنه كان يرددها حتى قبض. وعن الفضيل أنه قرأها وقال: ذهبت الأماني ههنا. ومن الطماع من يجعل العلو لفرعون والفساد لقارون، لقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وقوله: ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ويقول: من لم يكن مثل فرعون وقارون فله تلك الدار الآخرة، ولا يتدبر قوله: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ كما تدبرها علي وعمر والفضيل» قال أحمد: هو تعرض لغمص أهل السنة، فإن كل موحد من أهل الجنة، وإنما طمعوا حيث أطمعهم الله تعالى، بل وحقق طمعهم في رحمته حيث يقول رسوله عليه الصلاة والسلام: «من قال لا إله إلا الله دخل الجنة وإن زنى وإن سرق... ثلاثاً، وفي الثالثة: وإن رغم أنف أبي ذر» اللهم اقسم لنا من رجاء رحمتك ما تعصمنا به من القنوط، ومن خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك، والله الموفق للصواب.

﴿فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أوجب عليك تلاوته وتبليغه والعمل بما فيه، يعني: أن الذي حملك صعوبة هذا التكليف لمثيبك عليها ثواباً لا يحيط به الوصف. و﴿لَرَآدُّكَ﴾ بعد الموت ﴿إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أي معاد ليس لغيرك من البشر وتنكير المعاد لذلك: وقيل: المراد مكة: ووجهه أن يراد رده إليها يوم الفتح: ووجه تنكيره أنها كانت في ذلك اليوم معاداً له شأن، ومرجعاً له اعتداد؛ لغلبة رسول الله ـ ﷺ ـ عليها، وقهره لأهلها، وظهور عز الإسلام وأهله وذل الشرك وحزبه. والسورة مكية، فكأن الله وعده وهو بمكة في أذى وغلبة من أهلها: أنه يهاجر به منها، ويعيده إليها ظاهراً ظافراً. وقيل: نزلت عليه حين بلغ الجحفة في مهاجره. وقد اشتاق إلى مولده، ومولد آبائه، وحرم إبراهيم؛ فنزل جبريل فقال له: أتشتاق إلى مكة؟ قال: نعم؛ فأوحاها إليه. فإن قلت: كيف اتصل قوله تعالى: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ﴾ بما قبله؟ قلت: لما وعد رسوله الردّ إلى معاد، قال: قل للمشركين: ﴿رَبِّيٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ يعني نفسه وما يستحقه من الثواب في معاده ﴿وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ يعنيهم وما يستحقونه من العقاب في معادهم.

﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾

فإن قلت: قوله: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ ما وجه الاستثناء فيه؟ قلت: هذا كلام محمول على المعنى، كأنه قيل: وما ألقي عليك الكتاب إلا رحمة من ربك. ويجوز أن يكون إلا بمعنى لكن للاستدراك، أي: ولكن لرحمة من ربك ألقي إليك.

﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾﴾

وقرئ: يصدنك، من أصدّه بمعنى صدّه، وهي في لغة كلب. وقال [من الطويل]:

أُنَاسٌ أَصَدُّوا النَّاسَ بِالسَّيْفِ عَنْهُمُ صُدُودَ السَّوَاقِي عَنْ أُنُوفِ الْحَوَائِمِ[1]

﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ بعد وقت إنزاله[2]. وإذ تضاف إليه أسماء الزمان، كقولك: حينئذٍ وليلتئذٍ ويومئذٍ وما أشبه ذلك. والنهي عن مظاهرة الكافرين ونحو ذلك من باب التهييج الذي سيق ذكره.

﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ

---

(١) تقدم.

(٢) قوله «بعد وقت إنزاله» لعله: إنزالها. (ع)

﴿إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ إلا إياه. والوجه يعبر به عن الذات.

قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من قرأ طسم القصص كان له الأجر بعدد من صدق موسى وكذب به، ولم يبق ملك في السموات والأرض إلا شهد له يوم القيامة أنه كان صادقاً أن كل شيء هالك إلا وجهه، له الحكم وإليه ترجعون» (١١١٥).

١١١٥ ـ تقدم تخريجه برقم (٤٣٦) وهو حديث فضائل القرآن سورة سورة.
قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه الثعلبي وابن مردويه، والواحدي، من حديث أبي بن كعب بأسانيدهم المتقدم ذكرها.

obeikandl.com